تدبر القرآن الكريم
بين النظرية والتطبيق

تأليف

د. رقية طه جابرالعلواني

الطبعة الخامسة

2008م

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب قضية التدبر في كتاب الله وأهميتها وأثرها في حياة الفرد والمجتمع. حيث أن تدبر القرآن الكريم من أهم عوامل تحضر ورقي المسلمين في مختلف مناحي الحياة، كما أن غياب التدبر والفهم لكتاب الله، من أقوى أسباب التخلف الحضاري.

فالتدبر واجب شرعي على كل مسلم حسب قدراته العقلية وطاقاته الإدراكية. وهذه الطاقات خلقها الله عز وجل، وأودع فيها القدرة على النمو والزيادة عن طريق الاكتساب والتعلم والتطوير المتاح للبشر، فلا يعذر أحد بعدم التدبر في آيات الله وقد **يسره الله للذكر**.

والتدبر من أعظم الوسائل للإرتقاء بالفرد روحيا وسلوكيا وأخلاقيا ونفسيا، ومن أهم الوسائل لبناء وصياغة مجتمع متحضر من خلال بناء العقلية القادرة على التفاعل الإيجابي المتواصل مع الكون وإكتشاف القوانين الكونية والاجتماعية وتحويل ذلك كله بصورة إيجابية إلى تطبيقات وإنجازات تخدم المجتمع وأفراده وتساهم في تحقيق سعادتهم وتنظيم حياتهم.

ويتناول الكتاب آثار هجر التدبر في كتاب الله على المستوى الفردي والجماعي. فهجر التدبر مدعاة للابتعاد عن التفكير السليم ومناهجه، وحلول العقلية الخرافية، وانتشار الفرقة والتنازع بين المسلمين وسلطوية الأفكار والتوجهات المنحرفة.

كما يكشف الكتاب عن جملة من العوامل التي تعيق تحقيق التدبر في حياة الأفراد والمجتمعات كالتقليد الأعمى، ووجود بعض جوانب الخلل في مناهج التعليم والتلقي، والبعد الحاصل عن اللغة العربية السليمة. كما يقدم الكتاب بإيجاز بعض وسائل تفعيل التدبر كالاهتمام بتنمية القدرات العقلية لدى الأفراد، وتشجيع أجواء الحرية الفكرية المنضبطة وتنميتها، واستعمال وسائل الإدراك الإنسانية كالسمع والبصر بشكل صحيح فعال يقود إلى تفهم الآيات وتدبرها.

ومما تجدر إليه الإشارة في هذا السياق أن هذا الكتاب قد جاء حصيلة دورات تطبيقية عديدة في مجال التدبر، تمّ فيها تطبيق هذه المنهجية على عدد كبير وصل إلى مئات الدارسات في مواضيع عدة تربوية وفقهية وتعليمية وأسرية واجتماعية متعددة..

والكتاب إذ يقدم نبذة عن هذا المشروع المنهجي ليؤكد ضرورة إعمال المزيـد مـن البحوث والدراسات والدورات التطبيقية في هذا الميدان الغض لترشيد السير وتسديد الخطو.

د. رقية طه العلواني

www.drruqaia.com
drruqaia@yahoo.com

مقدمة

نزل القرآن الكريم على العرب وكانوا أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة فتلقوه بقلوبهم، وحفظوه في صدورهم، وساروا عليه في حياتهم وسلوكياتهم، حتى بات الواحد من الرعيل الأول مصحفا يمشي على الأرض. ولم تكن حالة الأمية السائدة آنذاك، مانعا من التدبر والنظر في القرآن الكريم. فقد نظر الرعيل الأول إلى القرآن وقرأوه بقلوب واعية وبصائر متفتحة، فكانت تلك القراءة مصداقا لقوله تعالى:" اقرأ".

وآتت تلك القراءة المتدبرة الواعية ثمارها في حياتهم سلوكا وحضارة وانفتاحا على العالم بأسره على الرغم من أنهم لم يتوفر لهم من آليات القراءة والكتابة إلا النزر اليسير.

إلا أن هذه التلاوة الواعية المتدبرة لم تستمر طويلا، فقد بدأت بالتراجع شيئا فشيئا وتضافرت عوامل عديدة في تأخرها وغيابا عن واقع المسلمين وحياتهم مع كتاب الله إلى أن وصلت إلى حالة من الأمية العقلية قلّ نظيرها.

فعلى الرغم من انتشار وسائل الطباعة والنشر التي أسهمت في تسهيل حفظ القرآن الكريم قراءة وسماعا وكتابة، إلا أن كتاب الله بات بعيدا عن واقع المسلمين وحياتهم العملية.

فلم يعد اهتمام المسلمين بالقرآن الكريم (في الأعم الأغلب) مجاوزا لحد التلاوة والحفظ بين الفينة والآخرى، والوقوف عند حدود تجويده وتحسين مخارج الحروف فقط بلا تدبر ولا فهم لمعانيه، وتلاوته على المرضى للتبرك والاستشفاء، أو عند الأموات أو في مجالس العزاء..

إن ما تعيشه الأمة اليوم من غياب حضاري وهزائم متكررة وعجز عن تعامل مع الأحداث واتخاذ المواقف واكتشاف السنن والقوانين الكونية والاجتماعية إلى غير ذلك من مظاهر التخلف الحضاري والغياب العمراني، يعد في جملته انعماسا لبعض مظاهر الأمية العقلية التي تعيشها المجتمعات المسلمة مع كتاب الله.

تلك الأمية التي نجمت عن بعد الأمة عن التدبر في كتاب الله، والمرور على آياته دون تأمل أو تدبر، فلم يعد القرآن الكريم مسيرا لدفة الواقع ولا ضابطا لسلوكيات الأفراد والمجتمع.

ويأتي هذا الكتاب لإبراز أهمية التدبر في كتاب الله في حياة الفرد والمجتمع، والآثار الخطيرة المترتبة على غيابه، ومحاولة صياغة بعض الحلول والخطوات التي يمكن من خلالها تطبيق التدبر في كتاب الله وإعادته إلى واقعنا وحياتنا من جديد.

المبحث الأول: في مفهوم التدبر

معنى التدبر في اللغة

الكلمة مأخوذ من مادة (د ب ر) وأصلها آخر الشيء وخلفه.

وفي لسان العرب دبر الأمر وتدبره أي نظر في عاقبته وعرف الأمر تدبرا أي بآخره. فتدبر الكلام أي النظر في أوله وآخره ثم إعادة النظر مرة بعد مرة، ومن هذا قول جرير:

ولا تتقون الشر حتى يصيبكم ولا تعرفون الأمر إلا تدبرا.

والتدبر في الأمر: التفكر فيه، وفلان ما يدري قبال الأمر من دباره أي أوله من آخره. ويقال فلان لو استقبل من أمره ما استدبره لهدي لوجهة أمره، أي لو علم في بدء أمره ما علمه في آخره لاسترشد لأمره. وقال أكثم بن صيفي لبنيه: يا بني لا تتدبروا أعجاز أمور قد ولت صدورها[1].

ودبرت الأمر تدبيرا فعلته عن فكر وروية، وتدبرته تدبرا نظرت في دبره وهو عاقبته و آخره.[2]

والتدبر النظر في دبر الأمور أي عواقبها وهو قريب من التفكر، إلا أن التفكر تصرف بالنظر في الدليل والتدبر تصرفه بالنظر في العواقب[3].

يقول ابن القيم رحمه الله:" وتدبر الكلام ان ينظر في اوله وآخره ثم يعيد نظره مره بعد مرة ولهذا جاء على بناء التفعل كالتجرع والتفهم والتبين"[4].

فأصل **معنى التدبر** في **اللغة مأخوذ من النظر** في **عواقب الأمور ونهاياتها**. وهو نشاط وجهد ذهني يقوم به العقل بغية التوصل إلى عواقب الأمور ونتائجها.

معنى تدبر القرآن الكريم

المقصود بتدبر القرآن الكريم: النظر والتوصل إلى مغزى الآيات القرآنية ومقاصدها وأهدافها وما ترمي إليه، عن طريق إعمال الفكر والتأمل وبذل الجهد الذهني في فهم الآيات.

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ج4، ص 273.

[2]- أحمد بن محمد المقري الفيومي، المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت، ج1، 189.

[3]- محمد عبد الرؤوف المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ت: محمد الداية، دار الفكرالمعاصر، دمشق، 1410هـ، ج1، 167. وأنظر كذلك علي بن محمد الجرجاني، التعريفات، ت: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ، ج1، 76.

[4]- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص 183

وقد عرفه بعض العلماء المعاصرين بأنه: التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[5].

والتدبر معنى أخص من المعرفة التفصيلة لمعاني الآيات، فالتدبر يقتضي النظر إلى ما تصير إليه عاقبة الكلام في الجملة، وهذا يدفع للعمل بما تم تدبره لاستحضار العاقبة، وفي هذا تعلق واضح بأصل المعنى اللغوي للتدبر الدال على نظر في ما يؤول إليه آخر أمره[6].

كما يشمل التدبر انتفاع القلب بتلك المعاني بخشوعه عند مواعظه، وخضوعه لأوامره وأخذ العبرة منه[7].

فهو نشاط ذهني يهدف الوصول إلى أواخر دلالات النصوص القرآنية ومراميها ومقاصدها. فالقرآن الكريم له مقاصد وغايات جاء لتحقيقها في حياة الأفراد والمجتمعات وهي غايات عامة. وثمة غايات اخرى خاصة بكل سورة في القرآن وما تروم تحقيقه من مقاصد.

والملاحظ أن الآيات الواردة في القرآن الكريم الداعية إلى التدبر جاءت بصيغة الفعل وليس الإسم، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن التدبر وظيفة عقلية وفعل من أفعال العقل الإنساني المتواصلة. فالإنسان يولد وهو مزود بقدرات عقلية متعددة ومنها القدرة على التدبر والنظر في العواقب وتأمل النتائج.

بيد أن هذه القدرة العقلية كغيرها من قدرات أشاد القرآن بها، كالتذكر والنظر والإبصار والحكمة والفقه وغيرها، تحتاج إلى التنمية والتطوير والتدريب على حسن الإستعمال والرعاية مدى الحياة، وإلا أصيبت بالضعف والضمور.

والآيات الواردة في القرآن الكريم، أشادت بالتدبر مبينة أنه قدرة عقلية تظهر في الربط بين المقدمات والنتائج واكتشاف الأسباب التي أدت إليها. قال تعالى: أَفَلاَ يتدبرونَ الْقُرآنَ ولَو كَانَ مِن عِندِ غَيرِ اللّهِ لَوجدواْ فِيهِ اختِلاَفًا كَثِيرا [8]. وفي موضع آخر: أَفَلَا يتدبرونَ

---

[5]- عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، 1989م.

[6]- ناصر بن سليمان العمر، تدبر القرآن وتعقله وتأمله، الموقع التالي على الانترنت:
http://www.almoslim.net/admin_prod/show_article_main.cfm?id=1091

[7]- سلمان بن عمر السنيدي، تدبر القرآن، الطبعة الثانية، المنتدى الإسلامي، 1423هـ، ص 11.

[8]- سورة النساء، الآية 82.

الْقُرآنَ أم علَى قُلُوبٍ أَقْفَالُها [9]. كما جاء في الآية الكريمة: أَفَلَم يدبروا الْقَولَ أم جاءهم ما لَم يأْتِ آباءهم الْأَولين [10] وقال عز من قائل: كِتاب أَنزلْناه إِلَيك مبارك ليدبروا آياتِهِ ولِيتذَكر أُولُوا الْأَلْباب [11].

وثمة مفاهيم مقاربة لمفهوم التدبر، إلا أنها تختلف عنه وتغايره في بعض الدقائق اللغوية والوظيفية. فالتعقل، التأويل، الفقه، التفكر، التذكر، النظر، الشهود، الإبصار، الحكمة، و التأمل..مفاهيم مقاربة للتدبر إلا أنها تختلف عنه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك القدرات العقلية وتباينت دلالاتها في النص القرآني ومراده منها، مما يؤكد على أنها قدرات متباينة يؤدي كل منها إلى أمر محدد، إلا أنها كلها تعد وظائف للعقل والذهن الإنساني..

وقد دعا القرآن الكريم وحض على استعمال مختلف القدرات العقلية وتنميتها وإعمالها، وعاب على الذين يعطّلون تلك القدرات ويهملون استعمالها رغم أنها أهم مزايا العقل الإنساني. قال تعالى في سياق الاستنكار على المعطلين للقدرات العقلية: أَفَلَم يسِيروا فِي الْأَرضِ فَتكُونَ لَهم قُلُوب يعقِلُونَ بِها أَو آذَانٌ يسمعونَ بِها فَإِنها لَا تعمى الْأَبصار ولَكِن تعمى الْقُلُوب الَّتِي فِي الصدورِ [12].

فقدرة التفكر (على سبيل المثال) التي قد يتوهم الإنسان الترادف بينها وبين التدبر، تعني استعمال المهارات العقلية كلها للوصول إلى الحقيقة. وهي التصرف في معاني الأشياء لدرك المطلوب، فهو ترتيب الأمور في الذهن للتوصل إلى مطلوب علما يكون علما أو ظنا[13].

---

[9]- سورة محمد، الآية 24.

[10]- سورة المؤمنون، الآية 68.

[11]- سورة ص، الآية 29.

[12]- سورة الحج، الآية 46.

[13]- المقري الفيومي، مرجع سابق، ج2، ص 479. الجرجاني، مرجع سابق، ج1، ص 88. وفي معنى التفكر في اللغة راجع: ابن منظور، مرجع سـابق، ج5، ص 65. محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1415هـ/1995م، ج1، ص 213.

وقد ورد ذكر مادة التفكر في القرآن الكريم في تسعة عشر موضعا. ويراد به إدامة النظر العقلي في العلامات والإشارات والآيات للتوصل إلي الفروق والموافقات بين الأشياء والمعاني والاحتمالات[14].

والتدبر في الآيات القرآنية والنظر في آيات الله في الأنفس والآفاق، ليس نشاطاً ذهنياً محضاً، فالإسلام لا يفصل بين العلم والعمل. بل التدبر مرحلة تتبعها مرحلة التطبيق والعمل المبني على فهم صحيح ووعي سليم. فالتطبيق السليم إنعكاس لفهم واضح لمعاني النص القرآني وإدراك لأهدافه ومراميه القريبة والبعيدة.

---

[14]- للمزيد من التفصيل حول قدرة التفكر وأهميتها راجع: مالك بدري، التفكر مـن المشـاهدة إلى الشـهود، المعهـد العـالمي للفكـر الإسـلامي، أمريكـا، 1413هـ/1993م.

المبحث الثاني: حكم التدبر

أثنى القرآن الكريم على أصحاب العقول والألباب، واعتبر تنمية القدرات العقلية المختلفة من أشرف الأعمال، فهي سمات لأهل العلم والعقل.

وقد ورد التدبر - كما ذكرنا سابقا- ومشتقاته في أربع آيات في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: كِتاب أنزلْناه إِلَيك مبارك ليدبروا آياتِهِ وليتذكر أُولُوا الْأَلْباب .

ففي هذه الآية نص صريح على أن **الغرض الأساسي من إنزال القرآن هو التدبر** والتذكر لا مجرد التلاوة على عظم أجرها. واللام هنا جاءت للتعليل في قوله تعالى:" ليدبروا" وهي نص صريح في تحديد الغاية من إنزال القرآن الكريم للتدبر والتذكر. ولا خلاف بين الأصوليين في الأخذ بالعلة إذا كان منصوصا عليها والعمل بها من باب العمل بالنص الصريح.

وروى ابن كثير في تفسيره قول الحسن البصري:" والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل"[15].

ويقول عز وجلّ في موضع آخر في معرض الحض والحث على التدبر: أَفَلاَ يتدبرونَ الْقُرآنَ .

وقد جاء في تفسير ابن كثير رحمه الله للآية: " يقول الله تعالى **آمراً** عباده بتدبر القرآن وناهيـاً لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة: أَفَلاَ يتدبرونَ الْقُرآن . فالأمر صريح في الآية، **فإذا أمر الله عز وجلّ بأمر فالأمر للوجوب فالتدبر واجب"**[16].

وقال تعالى في موضع آخر: الَذِين آتيناهم الْكِتاب يتلُونه حق تِلاَوتِهِ أُولَـئِك يؤمِنونَ بِهِ ومن يكْفُر بِهِ فَأُولَـئِك هم الْخاسِرون [17]. روى ابن كثير في تفسيره قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الآية: " يتلونه حق تلاوته إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار" أي التدبر في تلك الآيات.

---

[15]- اسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير ابن كثير، دار الفكر، بيروت، 1401هـ،ج4، ص 34.

[16]- ابن كثير، المرجع السابق، ج1، ص530.

[17]- سورة البقرة، الآية 121.

كما روى قول ابن مسعود رضي الله عنه:" والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئا على غير تأويله"[18].

وروى قول ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد اتباعه حق اتباعه، وروي عن عكرمة وعطاء ومجاهد وأبي رزين وإبراهيم النخعي نحو ذلك. ومعلوم أن **الاتباع لا يكون إلا بعد الفهم والتدبر وما لا يتحقق ويتم الواجب إلا به فهو واجب.**

ومن الأدلة على **وجوب التدبر كذلك،** قوله تعالى: وَمِنهم أُميونَ لاَ يعلَمونَ الْكِتاب ِإلا أَماِني وِإنْ هم ِإلا يظُنونَ [19]. قال ابن القيم في ذلك: " ذم الله المحرفين لكتابه والأميين الذين لا يعلمون منه إلا مجرد التلاوة وهي الأماني "[20] . وقال الشوكاني: وقيل: (الأماني :التلاوة) أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة دون تفهم وتدبر"[21].

ومن أبرز الأدلة على وجوب التدبر أن القرآن ذم كل من أعرض عن تدبر كتابه وتفهمه في كثير من النصوص، ومنها قوله تعالى في سياق الاستنكار:" أفلا يتدبرون القرآن" ومنها:" أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا". والذم والإستنكار لا يكون إلا عن أمر منهي عنه[22]. وعلى هذا ذهب عدد من العلماء والمفسرين إلى أن **ترك التدبر، من هجران القرآن الكريم المنهي عنه.**

---

[18]- تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج1، 164. وأورده كذلك محمد بن جرير الطبري في تفسيره، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، ج1، 521.

[19]- سورة البقرة، الآية 78.

[20]- ابن القيم الجوزية، بدائع التفسير، جمع يسرى السيد محمد، دار ابن الجوزي، السعودية، 1999، ج1، 300.

[21]- محمد بن علي الشوكاني، فتح القدير، دار الفكر، بيروت، ج1، ص 104.

[22]- أضواء البيان، الشنقيطي، ج6، ص 345.

يقول ابن كثير في هذا:" وترك تدبره وتفهمه من هجرانه وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه"[23].

كما أوضح ذلك ابن القيم رحمه الله في تفسيره حيث يقول: " هجر القرآن أنواع .. الرابع : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه "[24].

ومن ذلك أن الله عز وجل هو الذي أودع في الإنسان القدرة العقلية التي ينبغي استعمالها في تدبر آيات الله في الكتاب والكون. وعلى هذا كان الذم لمن ترك التدبر فيهما على اعتبار أنه قام بتعطيل قدرات إنسانية ميزه الخالق بها عن غيره من المخلوقات.

ويقول القرطبي رحمه الله في سياق عرضه لفضائل القرآن:" ولولا أنه سبحانه جعل في قلوب عباده من القوة على حمله ما جعله ليتدبروه وليعتبروا به وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته وأداء حقوقه وفرائضه لضعفت ولاندكت بثقله أو لتضعضعت له وأنى تطيقه وهو يقول تعالى جده وقوله الحق: لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [25] فأين قوة القلوب من قوة الجبال ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمله ما شاء أن يرزقهم فضلا منه ورحمة"[26]. ويقول في تفسيره لقوله تعالى: لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ : حثّ على تأمل مواعظ القرآن، وبين أنه لا عذر في ترك التدبر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها لانقادت لمواعظه ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة متصدعة أي مشفقة من خشية الله[27].

---

[23]- تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج3، 318.
[24]- بدائع التفسير، ج2، 292
[25]- سورة الحشر، الآية 21.
[26]- محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، القاهرة، 1372هـ، ج1، ص 4.
[27]- القرطبي، مرجع سابق، ج18، 44.

وقد جاء في تفسير هذه الآية أنه أريد به توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وعدم تخشعه عند تلاوته وقلة تدبره فيه[28].

كما أخبر الله عز وجل في آيات عديدة أن من أسباب حلول العذاب العاجل في الدنيا الإعراض عن آيات الله وعدم تدبرها والعمل بما جاء فيها. قال تعالى: قَدْ كَانَتْ ءَايَاتِي تتلَى عليكُم فَكُنتم علَى أعقَابِكُم تنكِصونَ. مستكْبِرين بِهِ سامِرا تهجرونَ. أَفَلَم يدبروا الْقَولَ أَم جاءَهم ما لَم يأْتِ ءَاباءَهم الْأَولِين. أَم لَم يعرِفُوا رسولَهم فَهم لَه منكِرونَ [29]. فعدم تدبر القرآن الكريم من الأسباب التي تعجل العقوبة للأمم في الدنيا.

وقد جاء في تفسير الشيخ السعدي لهذه الآية:" أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه أي فإنهم لو تدبروه لأوجب لهم الإيمان ولمنعهم من الكفر ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير ويعصم من كل شر والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقفالها"[30].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" ما اجتمع قوم يتلون كتاب الله، ويتدراسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده.."[31].

وتأسيسا على هذه النصوص وغيرها يتبين لنا أن التدبر واجب شرعي على كل مسلم، كلٌ حسب قدراته وطاقاته الإدراكية القابلة للاكتساب والزيادة وبذل الوسع في **تعلم وتفهم كتاب الله.** فلا يعذر أحد بعدم التدبر في آيات الله وقد يسره الله للذكر والعمل بما جاء فيه ولا يكون هذا ولا يتأتى إلا عن طريق التدبر والفهم وبذل الجهد في سبيل ذلك.

---

[28]- أبو السعود محمد بن محمد العمادي، تفسير ابي السعود، دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ، ج8، ص 233.

[29]- سورة المؤمنون، الآيات 66-69.

[30]- عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تفسير السعدي، تحقيق: محمد بن عثيمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1421/ 2000م، ج1، ص 555.

[31]- رواه مسلم، حديث رقم 2699. والترمذي رقم 2646.

يقول السعدي رحمه الله في تفسيره:" تدبره (أي القرآن) مفتاح كل خير محصل للعلوم والأسرار..فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها وكان حقيقا بالعبد أن يبذل جهده ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك. فمن وفق لذلك لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكر في ألفاظه ومعانيه ولوازمها وما تتضمنه وما تدل عليه منطوقا ومفهوما فإذا بذل وسعه في ذلك فالرب أكرم من عبده فلا بد أن يفتح عليه من علومه أمورا لا تدخل تحت كسبه "[32].

فالتدبر من أهم الوسائل التي يقوم الفرد من خلالها بتنمية تلك القدرات وكلما نمت لديه قدرة، كلما ارتقى مستوى التفكر والتدبر لديه. فالإنسان مأمور بالتعلم واكتساب المهارات المختلفة التي تعينه على تعلم وفهم آيات الله القرآنية والكونية.

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم ومن تبعهم بإحسان منزلة التدبر، فعدوه ضرورة من الضرورات الدينية والعقلية التي لايتم العمل إلا من خلالها. روى الطبري بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:" كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"[33].

بيد أن الكثير من المسلمين اليوم يعتقدون صعوبة فهم القرآن، وهذا الأمر من تلبيس الشيطان ومكائده ليصرف العقول والقلوب عن تفهم معاني القرآن وصرفهم عن الغاية التي لأجلها أنزل القرآن فهو كتاب هدى ورحمة وتربية للنفس وترقي بها[34].

فالله عز وجل يقول في كتابه الكريم: " فَإِنما يسرناه بِلِسانِك لَعلهم يتذَكرونَ "[35] يقول القرطبي في تفسيره:" أي القرآن يعني بيناه بلسانك العربي وجعلناه سهلاً على من تدبره وتأمله وقيل أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه"[36].

---

[32]- تفسير السعدي، ج1، ص 29.

[33]- الطبري، مرجع سابق، ج1، 35.

[34]- خالد عبدالكريم اللاحم، مفاتح تدبر القرآن والنجاح في الحياة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1426هـ، ص 16.

وعلى هذا وردت أقوال العلماء محذرة من الانزلاق في هذا السبيل. يقول ابن تيمية رحمه الله في ذلك:" من المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد الفاظه فالقرآن أولى بذلك وايضا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله الذى هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم"[37].

وقد نقل ابن رجب الحنبلي رحمه الله أقوال طائفة منهم في ذلك ومنه ما قاله ابن هبيرة رحمه الله:" ومن مكايد الشيطان تنفيره عباد الله من تدبر القرآن، لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول هذه مخاطرة حتى يقول الإنسان أنا لا أتكلم في القرآن تورعا"[38]. وقال الشاطبي:" فمن حيث كان القرآن معجزا أفحم الفصحاء، وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله، فذلك لا يخرجه عن كونه عربيا جاريا على أساليب كلام العرب، ميسرا للفهم فيه عن الله ما أمر به ونهى"[39]. ويقول ابن القيم رحمه الله:" من قال إن له تأولا لا نفهمه ولا نعلمه وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج"[40]. ويقول الصنعاني في ذلك:" حفظ تعالى كتابه وسنة رسوله إلى يوم التناد بأن كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لا يحتاج في معناها إلى علم النحو وإلى علم الأصول بل في الأفهام والطباع والعقول ما سارع به إلى معرفة المراد منها ثم قرعها الأسماع من دون نظر إلى شيء من تلك القواعد الأصولية والأصول النحوية فإن من قرع سمعه قوله تعالى:" وما تقَدموا لأنفُسِكُم من خيرٍ تجِدوه عِند اللّهِ"[41] يفهم معناه من دون أن يعرف أن ما كلمة شرط وتقدموا مجزوم بها لأنه شرطها وتجدوه مجزوم بها لأنه جزاؤه.... ولذا ترى العامة ...يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويبكون لقوارعه وما حواه ولا يعرفون إعرابا ولا غيره مما سقناه بل ربما كان موقع ما يسمعون في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد وبلغ غاية الذكاء والانتقاد... فليت شعري ما الذي خص الكتاب

---

[35]- سورة الدخان، الآية 58.

[36]- القرطبي، مرجع سابق، ج11، ص 162.

[37]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج13، ص 329.

[38]- ابن رجب الحنبلي، ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ،

[39]- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، تحقيق: عبدالله دراز، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ج3، ص 346.

[40]- ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، دار الفكر، دمشق، ج1، ص 144.

[41]- سورة البقرة، الآية 110.

والسنة بالمنع عن معرفة معانيها وفهم تراكيبها ومبانيها والإعراض عن استخراج ما فيها حتى جعلت معانيها كالمقصورات في الخيام.. ولم يبق لنا إليها إلا ترديد ألفاظها والحروف"[42].

وواقع الأمر أن معظم القرآن واضح ظاهر، يدرك معناه العالم والأمي وفهمه وتدبره ليس بالأمر المستحيل أو الصعب الذي يمكن أن يجر إلى الاكتفاء بقراءة ألفاظه دون فهمه وفقه معانيه[43].

---

[42]- محمد بن إسماعيل الصنعاني، إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد، تحقيق: صلاح الدين مقبول أحمد، الدار السلفية، الكويت، 1405هـ، ج1، ص 160.

[43]- خالد بن عبدالكريم اللاحم، مرجع سابق، ص 17-18.

المبحث الثالث: الآثار الإيجابية المترتبة على إعمال التدبر في حياة الفرد والمجتمع

التدبر مفتاح لكل خير وصلاح ورخاء في حياة الأفراد والمجتمعات. وهو من أعظم الطرق للإرتقاء بالفرد روحيا وسلوكيا وأخلاقيا ونفسيا. فقد نزل القرآن الكريم وفيه تبيان لكل شيء، يتضمن منهج حياة متكامل. يجد الفرد فيه حلا لكل مشاكله وأزماته وما يعرض له. وقد بين القرآن أن من أبرز النتائج التي يحصل عليها العقل المتجرد إذا تفكر وتدبر ما يلي:

- التوصل إلى الإيمان بوحدانية الله ، والشعور بعظمته سبحانه، ومعرفة الحق الذي خلقت به السموات والأرض. يقول سبحانه ﴿إِن فِي خَلْقِ السماوات والأَرضِ واخْتِلاَفِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لِّأُولِي الأَلْبابِ﴾[44].

- الثبات على الحق الذي توصل إليه، والاطمئنان القلبي الذي يصاحبه، خلافاً للذي انعدمت بصيرته فهو في أمر مريج، لا يستقر على حال، ولا يطمئن إلى وجهة معينة، فهو مشتت تتنازعه الأهواء، يقول سبحانه: ﴿أَفَمن يعلَم أنما أُنزِلَ إِلَيكَ مِن ربك الْحق كَمن هو أَعمى إِنما يتذَكر أُولُواْ الأَلْبابِ﴾[45].

- حثّ على العلم والمعرفة التي تقود الإنسان في حياته العملية، والتفكر في الخلق الذي يقود إلى العلم والتكنولوجيا والإبداع، من خلال الكشف عن سنن وقوانين الكون والحياة وتسخيرها لتنمية الحياة وإعمار الأرض. وعلى هذا أثنى الله سبحانه على العلماء ورفع مقامهم، فقرنهم سبحانه بذكره حينما قال: ﴿شهد اللّه أَنه لاَ إِلَـه إِلا هو والْملاَئِكَةُ وأُولُواْ الْعِلْمِ قَآئِماً بِالْقِسطِ لاَ إِلَـه إِلا هو الْعزِيز الْحكِيم﴾[46]. وقال سبحانه: ﴿ومِن الناسِ والدواب والْأَنعامِ مختَلِف أَلْوانه كَذَلِك إِنما يخشى الله مِن عِبادِهِ الْعلَماءُ إِن الله عزِيز

---

[44]- سورة آل عمران، الآية 190

[45]- سورة الرعد، الآية 19.

[46]- سورة آل عمران، الآية 18.

غَفُور [47] وقال سبحانه: يرفَعِ الله الذِين آمنوا مِنكُم والذِين أُوتوا الْعِلْم درجاتٍ والله بِما تعملُونَ خبِير [48].

- الحث على تحريك العقل، واستثارة طاقاته في كل وقت، وعلى كل حالة بشتى الأساليب وتنمية مهارات منهج البحث التجريبي، وتأسيس العقلية المسلمة العلمية التي ترى النظر والتفكر في الكون والأنفس فريضة وعبادة تتقرب بها إلى الله عز وجلّ.. فقد دعا القرآن الكريم في عدد هائل من آياته إلى التبصر والنظر في حقيقة الوجود والكون وآفاق النفس لتصل بالعقل إلى الغايات الكبرى محققا العمران الحضاري المنشود. قال تعالى: قُلِ انظُرواْ ماذَا فِي السماواتِ والأَرضِ [49] أولَم يتفَكروا فِي أنفُسِهِم ما خلَق الله السماواتِ والْأرض وما بينهما إِلا بِالْحق وأجلٍ مسمى [50] أولَم ينظُرواْ فِي ملَكُوتِ السماواتِ والأَرضِ وما خلَق اللّه مِن شيءٍ وأَنْ عسى أَن يكُونَ قَدِ اقْترب أَجلُهم فَبِأَي حدِيثٍ بعده يؤمِنون [51].

إن اهتمام القرآن الكريم بالتأمل والتدبر في الكون وآيات الخلق في الأنفس والمجتمعات والأمم، لدليل واضح على مدى اهتمامه بتأسيس العقلية العلمية عند المسلم. تلك العقلية التي تنظر بعين إلى الكتاب الكريم وتنظر بالعين الأخرى إلى الكون في ذات الوقت فتقرأ الكون وآياته المنظورة من خلال قراءتها المتدبرة للقرآن الكريم.

إن الغاية من تأكيد القرآن الكريم واهتمامه بقراءة وتدبر آيات الله في الكون والأنفس، غاية تستحث العقول للتنقيب والسير في الكون واستخراج سنن وقوانين سيره. تلك القوانين المطردة التي لا تقبل التغيير ولا التبديل. وهي قوانين خلقها الله عز وجل وأودعها لتحكم

---

[47]- سورة فاطر، الآية 28.

[48]- سورة المجادلة، الآية 11.

[49]- سورة يونس، الآية 101.

[50]- سورة الروم، الآية 8.

[51]- سورة الأعراف، الآية 185.

الكون وتحدد سيرورته. قال تعالى: سنةَ اللهِ الِتي قَد خلَت ِمن قَبلُ ولَن تجِد ِلسنةِ اللهِ تبدِيلًا [52]. تلك القوانين هي مفتاح تحقيق العمران وإقامة الحضارة المنشودة.

لقد أثمر تدبر السابقين رحمهم الله لكتاب الله عز وجلّ وأينع وجاء حصاده فظهر في المسلمين علماء في مختلف العلوم والفنون كالكيمياء والطب والرياضيات والحساب والفلك وغيرها من العلوم الكونية التي لا تستقيم الأمم ولا تقام الحضارات وتبنى إلا بتحصيلها وقراءتها قراءة واعية تستحضر القرآن الكريم كمنهج شامل يحكم الحياة والكون.

والتدبر من أهم العوامل المحفزة والدوافع القوية لنهضة فكرية وعلمية هائلة أرست قواعدها قراءة كتاب الله والنظر إلى الكون من خلالها، الأمر الذي أفرز في النهاية الحضارة الإسلامية التي لا يزال الغرب يدين لعلومها وجامعاتها في الأندلس وغيرها. إن المؤمن المتدبر لكتاب الله حق تدبره لهو أقدر على غيره من النظر العقلي في هذا الكون واستخراج مكنونات قوانين سيره والتعرف على أسراره ومن ثمّ توظيف ذلك كله لخدمة الإنسانية جمعاء من خلال توفير سبل أفضل للحياة الكريمة الهانئة. لقد نقل التاريخ بأمانة وموضوعية الأعمال العلمية الهائلة التي قام بها العلماء المسلمون والتي كانت خير شاهد على ثمرة التدبر في حياة الفرد وسلوكه.

- التدبر دليل وهادي نحو الأقوم والأفضل في كل ميدان من ميادين الحياة، قال تعالى: إن هذَا القُرآنَ يهدِي ِللِتي هِي أَقْوم [53]. فالـقـــــــــــــرآن يهدِي ِلـلِتي هِي أَقْوم في كل صغيرة وكبيرة. يقدم الأصوب والأفضل في تهذيب السلوك والمشاعر الإنسانية، في العبادة بالموازنة بين التكاليف والطـاقـــــــة، في علاقات الناس بعضهم ببعض أفراداً وأزواجاً، وحكومات وشـعـوباً، ودولاً وأجناساً.

---

[52]- سورة الفتح، الآية 23.

[53]- سورة الإسراء، الآية 9.

ولعلّ ابلغ توضيح في ذلك ما روي في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قالت:" كان خلقه القرآن".

فكان صلى الله عليه وسلم ينبثق في سلوكياته كافة من منطلق القرآن وهديه. أنه كان يعيش في جو قرآني ويصدر في سلوكه عن قيم القرآن. فهو مع القرآن في تأمل وتدبر لآلاء الله عندما يكون الحديث عن الكون وقواه وأسراره، ومع الماضين في الاتعاظ والاعتبار بمصارعهم ومصائرهم ومسالكهم عندما يكون الحديث في قصص القرآن، ومع الآخرة والنعيم والجحيم عندما يكون القرآن وصفا للجزاء الأخروي وما أعد لهؤلاء وأولئك..[54].

لقد أثمر التدبر في القرآن نتائج مذهلة في حياة المسلمين الذين كانوا يتلقونه ليعملوه في حياتهم فيخالط مشاعرهم وأحاسيسهم وتتفاعل به خلجات نفوسهم. فكانت الشخصية المسلمة السوية من أبرز ثمار التدبر في القرآن الكريم.

فالفهم السليم مدعاة لتطبيق سليم وتنفيذ صائب. وشواهد ذلك من التاريخ كثيرة فقد كان تدبر بعض آيات من القرآن الكريم نقطة تحول كبيرة في حياة عدد من الصالحين من حياة طغت عليها الغفلة والبعد عن الطريق السوي إلى حياة عامرة بحب الله واتباع منهج الحق. فالتدبر محور الارتقاء بالروح وتزكية النفس وتنقيتها من كل ما يبعدها عن الله عز وجل.

ومن ذلك ما روي عن توبة الفضيل بن عياض فيما رواه ابن قدامة المقدسي رحمه الله في كتابه التوابين:" كان الفضيل بن عياض يقطع الطريق فخرج ذات يوم ليقطع الطريق فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلا فقال بعضهم لبعض اعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلا يقطع الطريق يقال له الفضيل قال فسمع الفضيل فأرعد فقال يا قوم أنا الفضيل جوزوا والله لأجتهدن أن لا أعصي الله أبدا فرجع عما كان عليه، وروي من طريق أخرى أنه أضافهم تلك الليلة وقال أنتم آمنون من الفضيل وخرج يرتاد لهم علفا ثم رجع فسمع قارئا يقرأ الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا

---

[54]- محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، أمريكا، 1991م، ص 28.

كَالَّذِين أُوتوا الْكِتاب ِمن قَبلُ فَطَالَ عليهم الْأَمد فَقَست قُلُوبهم وكَثِير منهم فَاسِقُونَ [55] قال بلى والله قد آن فكان هذا مبتدأ توبته"[56].

- التدبر مخرج لأزمات الفرد ومشاكله فالقرآن الكريم حوى في ثناياه منهج حياة متكامل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. إلا أن من أهم الوسائل لتحقيق ذلك والوصول إليه الإيمان الجازم بذلك ومن ثمّ الإتيان إلى القرآن الكريم بذهن متفتح ونفسية قابلة للانصياع إلى حكمه وتنفيذ أوامره والابتعاد عن نواهيه. ومن ذلك ما ساقه القرآن الكريم في علاج كثير من الأمراض الإجتماعية المنتشرة بين عدد من أفراد المجتمع مسببة العديد من المشاكل الخطرة التي لا يقف خطرها عند الفرد وحده بل تمتد لتشمل شرائح متعددة في المجتمع.

ومن تلك الأمراض ظاهرة الإشاعة والقفز إلى إصدار الأحكام وإشاعتها بمجرد السماع الأولي دون السماح لها بالمرور في منطقة السماع الداخلي الذي يشترك به مع القدرات العقلية ويتبادل معها التحليل والاستنتاج ومنها التدبر في المسألة بأكملها والتروي والـ تأني قبل التسرع في القفز لإصدار الأحكام على الآخرين.

والقرآن الكريم يصف هذا الأسلوب بكونه تلقيا باللسان دون الصبر عليها للمرور بالأذن والوصول إلى منطقة الوعي ويتهدد بالعقوبة الإلهية لما يترتب على هذا من أخطاء في الحكم وعدوان على الأبرياء. قال تعالى: ِإذْ تلَقونه ِبأَلْسِنتِكُم وتقُولُونَ ِبأَفْواهِكُم ما لَيس لَكُم ِبهِ عِلْم وتحسبونه هينا وهو عِند اللهِ عظِيم. ولَولَا ِإذْ سمِعتموه قُلْتم ما يكُونُ لَنا أَن نتكَلم ِبهذَا سبحانك هذَا بهتانٌ عظِيم. يعِظُكُم الله أَن تعودوا ِلمِثْلِهِ أَبدا ِإن كُنتم مؤمِنِين [57].

[55]- سورة الحديد، الآية 16.

[56]- عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، التوابين، ت: عبد القادر الأرناؤوط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ، ج1، 207.

[57]- سورة النور، الآية 15-17.

فالتدبر والنظر في الآيات القرآنية الكريمة والربط بينها وبين واقع الحياة والأحداث الجارية في الحياة، يعد من أنجع الوسائل لعلاج كثير من المظاهر المرضية والسلوكية في المجتمع الناجمة عن التسرع وغياب التأني والتأمل والتدبر في آيات الله في القرآن والكون والنفس[58].

من هنا كان التدبر مصدرا لهداية المؤمنين به المتدبرين لآياته الواقفين عند أوامره وحدوده. يقول السعدي رحمه الله في ذلك:" أعظم نعم الله على العباد (القرآن) ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر ولهذا بين أن نفعه ونوره وهداه مختص بالمؤمنين فقال "وإنه لهدى" من الضلالة والغي والشبه) ورحمة تثلج له صدورهم وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية للمؤمنين به المصدقين له المتلقين له بالقبول المقبلين على تدبره المتفكرين في معانيه فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح"[59].

- التدبر من أهم الوسائل التي تقود الإنسان إلى التجرد من الهوى والمصلحة والتأثر بالمحيط الخارجي الفاسد والسير على مواكبة المألوف مهما بعد عن منهج القرآن، وقد جعل القرآن الكريم هذا هو الطريق الموصل إلى الحق، وإثبات صحة العقيدة، وصدق النبوة يقول سبحانه: قُلْ إنما أَعِظُكُم بِواحِدةٍ أن تقُوموا لِلهِ مثْنى وفُرادى ثُم تتفَكروا ما بِصاحِبِكُم من جِنةٍ إنْ هو إلا نذِير لكُم بين يدي عذَابٍ شدِيدٍ [60]. إنها لدعوة جليلة إلى إعمال الذهن، وتشغيل الطاقة العقلية، لتقتنع بالحق فتأخذ به، وتعرف الزيف فترفضه، لا دعوة إلى إطفاء مصباح العقل والتدبر، والاعتقاد على عمى فيما لا يقبله العقل.

والمجتمع الذي يتخذ التدبر في كتاب الله منهجا له، مجتمع واعي، يسير على نور وبصيرة وهدى. يبحث وينظر في سنن قيام الأمم ونهوض المجتمعات من خلال القصص القرآني الذي خصص مساحة واسعة لطرح القضايا المتعلقة بالنهوض والتراجع الحضاري لعدد من الأقوام السابقة والحضارات السالفة. قال تعالى: سنةَ اللهِ فِي الذِين خلَوا مِن قَبلُ ولَن

---

[58]- راجع في ذلك الكيلاني، مرجع سابق، ص 79.

[59]- تفسير السعدي، ج1، ص 609.

[60]- سورة سبأ، الآية 46.

تجِد ِلسنةِ اللهِ تبدِيلًا [61]. فالقرآن الكريم يأمر المسلمين بالنظر والتدبر في قصص السابقين من الأقوام والأمم والاعتبار بالقوانين التي حكمت ظهورهم وسقوطهم فهي ذات القوانين لا تتغير ولا تتبدل، تنطبق على الصديق والعدو بنص القرآن الكريم ومنطوقه سنةَ اللهِ الِتي قَد خلَت ِمن قَبلُ ولَن تجِد ِلسنةِ اللهِ تبدِيلًا [62].

إن تطبيق هذا النظر اليوم في واقعنا المعاصر كفيل بإنقاذ الأمة بأسرها من براثن الهزائم المتكررة التي تقف الأمة حيالها كقدر لا يمكن إلا الاستسلام له مهما بلغت ضراوة الهزيمة ومرارة النكبة. وغفلت الأمة عن أن القدر يرد بقدر، فقدر الهزيمة يرد بقدر النصر إذا ما استجمعت الأمة أسبابه وتمكنت من الوقوف على مفاتيحه. فالتدبر يجنب المجتمعات والأمم السقوط في براثن الاتكالية والاستسلام السلبي الممقوت الذي أوقع الأمة في سيل من الهزائم والنكبات المتوالية على مر العصور.

والتدبر من أهم الوسائل لبناء وصياغة مجتمع متحضر من خلال بناء العقلية القادرة على التفاعل الإيجابي المتواصل مع الكون وإكتشاف القوانين الكونية والاجتماعية وتحويل ذلك كله بصورة إيجابية إلى تطبيقات وإنجازات تخدم المجتمع وأفراده وتساهم في تحقيق سعادتهم وتنظيم حياتهم. فالتدبر في كتاب الله معجزة مستمرة لا تتوقف، تقدم في كل يوم جديدا مثمرا، يجد فيها كل جيل ضالته المنشودة وسبل سعادته ومقومات حياته.
ولم يتوقف الإبداع في حياة المسلمين إلا عندما نبذوا التدبر وهجروا كتاب ربهم، فقد كان التدبر في الكتاب مفتاحا للتدبر والنظر في الكون الفسيح وكشف قوانينه وتسخيرها لسعادة البشرية.

لقد أثمر التدبر في كتاب الله نتائج مذهلة في واقع المجتمع المسلم، فكان ظهور المجتهدين المطلقين في مختلف فروع العلم من فقه ونحوه، دليلا ساطعا على أثر التدبر بما خلفوه من مؤلفات وموسوعات علمية هائلة تنم عن تفاعل إيجابي بين فهمهم لكتاب الله وإدراكهم

[61]- سورة الأحزاب، الآية 62
[62]- سورة الفتح، الآية 23.

لطبيعة الواقع الذي يحيون فيه. فجاءت كتبهم ومؤلفاتهم ثمرة تفاعل متواصل بين الكتاب والواقع من خلال فهم وتدبر سليم يقوم على أصول راسخة وقواعد واضحة وضوابط بينة.

وبذا بات العالم الإسلامي آنذاك مصدرا لمختلف القيم الحضارية من خلال إعمال التدبر واتخاذه منهجا عمليا في الحياة.

لقد أدرك المسلمون آنذاك أن واقع الهزيمة والتأخر له أسبابه وقوانينه الحاكمة لسيره، فالهزيمة لا تأتي إلا بسبب ولا تحلّ إلا من جراء سلوكيات معينة، فكان التدبر وسيلة لفهم تلك السلوكيات والوقوف على المعوقات وتجنب مواطن الزلل والخلل ومحاولة الإقالة من العثرات.

والقرآن الكريم عند تدبر آياته، يوجه الأنظار باستمرار إلى تلك الحقيقة ويوقظ النفوس على ضرورة الخروج من فكر التبرير وإلقاء اللوم على الآخرين إلى فكر النقد الذاتي الذي يجول في أرجاء النفس باحثا عن أسباب التأخر محاولا الخروج منها وعلاجها عوضا عن غض الطرف عنها.

قال تعالى: ظَهر الْفَساد ِفي الْبر والْبحرِ ِبما كَسبت أَيدِي الناسِ ِليذِيقَهم بعض الذِي عمِلُوا لَعلهم يرجِعونَ .[63]

وهذه القوانين التي تنطبق على الخلق أجمعين يقف عندها القرآن الكريم بعد هزيمة المسلمين في أحد ليوضح لهم القانون ويربط بينه وبين واقعهم مؤكدا على أسباب الهزيمة، حيث يقول:

ولَقَد صدقَكُم اللّه وعده ِإذْ تحسونهم ِبِإذْنِهِ حتى ِإذَا فَشِلْتم وتنازعتم ِفي الأَمرِ وعصيتم من بعدِ ما أَراكُم ما تحِبونَ ِمنكُم من يرِيد الدنيا ومِنكُم من يرِيد الآخِرةَ ثُم صرفَكُم عنهم ِليبتلِيكُم ولَقَد عفَا عنكُم واللّه ذُو فَضلٍ علَى الْمؤمِنِين [64]

وما أحوج المجتمع اليوم إلى التحرر من سلطان الفكر التبريري إلى فضاء النقد الذاتي في إعادة التوازن إلى الحياة من جديد والتخلص من وسائل التأخر والتخلف والتفاعل الإيجابي مع الواقع من خلال دراسات متأنية تقف عند القضايا والمشاكل لتبحث بعمق في جذور نشأتها ومسبباتها، ومن ثم التخلص منها بإيجاد حلول ناجعة أصيلة لا مستوردة.

---

[63]- سورة الروم، الآية 43.

[64]- سورة آل عمران، الآية152 .

لقد حوى القرآن الكريم في آياته سنن الهزيمة وقوانين التخاذل والتراجع كما أشار إلى قوانين التغيير والنصر. ولن يتأتى للمسلمين الوقوف على تلك القوانين والمفاتيح إلا من خلال قراءة القرآن الكريم قراءة واعية متدبرة، تستنبط وتحلل وتربط بين الكتاب والواقع الذي تحياه، مستخدمة مختلف القدرات العقلية التي وهبها الخالق عز وجل وأودعها في الإنسان ليوظفها لبناء الأرض وتشييد الحضارة[65].

---

[65]- عماد الدين خليل، مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا، 2001م، ص 200 وما بعدها.

المبحث الرابع: الآثار السلبية المترتبة على هجر التدبر في حياة الأفراد والمجتمع

جلّ ما نشهده في العصر الحاضر من غياب حضاري وتأخر في مختلف مناحي الحياة العلمية والعملية إضافة إلى ما يعاني منه الأفراد من مشاكل وأزمات خانقة على مختلف المستويات في الحياة الإنسانية، يعد من ثمار إهمال التدبر في كتاب الله عز وجلّ.

فعلى المستوى الفردي ورغم إيمان الفرد بأن القرآن الكريم قد حوى في ثناياه منهجا متكاملا لتنظيم الأسرة والمجتمع، إلا أنه يبحث عن حلّ أزماته ومشاكله الشخصية والاجتماعية بعيدا عن منهج الكتاب.

وقد يلجأ في كثير من الاحيان إلى استيراد الحلول من مصادر غريبة المنبت والمنشأ بعيدة كل البعد عن واقع الحياة والمجتمع المسلم. وفي استيراد تلك الحلول مخاطر جمة، فهي بطبيعتها مغايرة لما ينشأ عليه الفرد المسلم إضافة إلى كونها في الأصل غريبة المنبت وبذا تصبح عملية استزراعها في مجتمعاتنا وتطبيقها على واقعنا، عملية بعيدة عن النجاح، فما يصلح لمجتمع لا يصلح لآخر مخالف له في الطبيعة والعقيدة والأصل والثقافة.

لقد أدى إهمال فريضة التدبر إلى ظهور العقلية التقليدية وهي عقلية لا تنمو ولا تترعرع إلا في أجواء الجهل والتخلف الحضاري. ولم يعرفها المجتمع المسلم إلا في عصور الـتأخر وهجر الكتاب وتدبره.

وقد عاب القرآن الكريم التقليد بمختلف صروفه وفنونه وحمل على المشركين حملة شعواء تقليدهم الآباء والاجداد، ذلك التقليد الذي وقف حاجزا بينهم وبين قبول الدعوة الإسلامية وحال بينهم وبين الانصياع للحق الذي ما رأوا فيه عيبا سوى تسفيه آراء أسلافهم وتقاليدهم التي درجوا عليها. يقول تعالى في ذلك:

بلْ قَالُوا إِنا وجدنا آباءنا علَى أُمةٍ وإِنا علَى آثَارِهِم مهتدونَ [66]. وفي القرآن الكريم دعوة متواصلة لتحرير عقلية الفرد مما علق بها من تقاليد وعادات وأوهام انحدرت من موروث الآباء

[66]- سورة الزخرف، الآية 22.

والأجداد، أو من البيئة التي تحيط بنا منذ الطفولة في سبيل التوصل إلى العقلية الناضجة العلمية التي تبحث وتفكر وتستنبط بحرية وموضوعية.

فالعقل مطالب بالاحتكام إلى آيات القرآن الكريم وعرض الآراء البشرية على القرآن الكريم فما وافقه أخذنا به وما خالفه أعرضنا عنه. فقد تعبدنا الخالق بالقرآن الكريم ولم يتعبدنا بأقوال البشر.

ومن النتائج السلبية المترتبة على إهمال التدبر كذلك، الإنصراف والاهتمام البالغ بقراءة الكتب المختلفة، والانشغال بما جاء فيها عن كتاب الله وقد يصل الأمر حد إتباعها رغم مخالفتها لبعض ما جاء في كتاب الله نظرا للبعد الحاصل عن كتاب الله وعدم الرجوع أو الاحتكام إليه.

ولقد ورد عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين نفورهم الشديد وتنفيرهم من كثرة الانشغال بالكتب وتدوين حتى أقوالهم وأرائهم، خشية الإنصراف إليها والانشغال بها عن كتاب الله عز وجل.

لقد وضع كبار الصحابة رضوان الله عليهم من أمثال عمر بن الخطاب وغيره **منهجا دقيقا يرى** في **كتاب الله وسنة المصطفى الصحيحة غنية عن أي كتاب أو منهج.** فأحاطوا القرآن الكريم بسياج منيع في سبيل الحفاظ على مبدأ الانصراف إليه وتدارسه دون غيره. وهذا ما يفسر لنا حملتهم على كل من حاول تدوين سنن أو أقوال في كتب ومؤلفات.

وقد ساق ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم تحت عنوان باب **ذكركراهية كتابة العلم وتخليده** في **الصحف** جملة من أقوال الصحابة والتابعين وشدة كراهيتهم للإفراط في الكتابة والتدوين لآرائهم خشية الانشغال بها والإنصراف عن كتاب الله.

فعن جابر بن عبد الله بن يسار قال سمعت عليا يخطب يقول: أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث يتبعون أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم"[67].

وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال هلك أهل الكتاب قبلكم حين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. وروي ابن عبد البر قول الضحاك: يأتي على الناس زمان يكثر فيه الأحاديث حتى يبقى المصحف بغباره لا ينظر فيه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنما ضل من كان قبلكم بالكتب[68].

ويتضح من تلك الأقوال أن الكراهية تعود أصلا إلى الخوف من أن تتخذ تلك الكتب منزلة تضاهي القرآن الكريم من حيث الإنشغال با وإنصراف الناس إليها كما أشار إلى ذلك ابن عبد البر رحمه الله.

يقول ابن تيمية رحمه الله في ذلك:" فى باب فهم القرآن فهو دائم التفكر فى معانيه والتدبر لألفاظه وإستغنائه بمعانى القرآن وحكمه عن غيره من كلام الناس وإذا سمع شيئا من كلام الناس وعلومهم عرضه على القرآن فإن شهد له بالتزكية قبله وإلا رده وإن لم يشهد له بقبول ولا رد وقفه وهمته عاكفة على مراد ربه من كلامه ولا يجعل همته فيما حجب به أكثر الناس من العلوم عن حقائق القرآن"[69].

ولا يفهم من ذلك أن نرمي اليوم بتلك الثروة التراثية العظيمة التي وصلت إلينا بعد جهود هائلة من علمائنا السابقين رحمهم الله، إلا أن المقصود أن يوجه الاهتمام الأول إلى القرآن الكريم، ويستعان بما كتبه السابقون رحمهم الله في تدبر الكتاب وفهمه.

---

[67]- يوسف ين عبد البر النمري، جامع بيان العلم وفضله، دار الكتب العلمية، بيروت، 1398هـ، ج1، ص 65 وما بعدها .

[68]- راجع ذلك كله في باب كراهية كتابة العلم، المرجع السابق، ج1، ص 66 وما بعدها.

[69]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج15، ص 60.

ومن أبرز آثار هجر التدبر كذلك انتشار الفرقة والتنازع بين الأفراد والجماعات واعتبار كل اختلاف في رأي أو منهج، من قبيل الخروج عن الدين والشرع ومدلف للطعن في عقائد الآخرين وإيمانهم. وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم ذلك الأثر كما حاولوا محاربته في مهده، فقد رأوا في هجر التدبر والإعراض عنه والمسارعة في التلاوة دون تدبر، مدعاة لوقوع النزاع والخصام الناجم عن سور الفهم والتأويل لبعض آيات كتاب الله.

ومن ذلك ما روي عن ابن عباس رضي اله عنهما قال : " قدم رجل يسأله عن الناس فقال يا أمير المؤمنين قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا فقلت (يعني قال ابن عباس) والله ما أحب أن يسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة قال ثم قال مه فانطلقت إلى منزلي مكتئبا حزينا فقلت قد كنت نزلت من هذا بمنزلة ولا أراني إلا قد سقطت من نفسه، فاضطجعت على فراشي حتى عادني نسوة أهلي وما بي وجع فبينا أنا على ذلك قيل لي أجب أمير المؤمنين فخرجت فإذا هو قائم على الباب ينتظرني فأخذ بيدي ثم خلا بي فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل انفا؟ قلت: يا أمير المؤمنين إن كنت أسأت فإني أستغفر الله وأتوب إليه وأنزل حيث أحببت، قال: لتخبرني، قلت متى ما يسارعوا هذه المسارعة يحتقوا ومتى ما يحتقوا يختصموا ومتى ما اختصموا يختلفوا ومتى ما يختلفوا يقتتلوا، قال لله بلى لقد كنت أكتمها الناس حتى جئت بها "[70].

لقد أدرك عمر وابن عباس رضي الله عنهم، أن المسارعة في التلاوة دون تدبر وتأمل مدعاة للبعد عن الفهم السليم الذي يجر إلى وقوع الخلاف والخصام والسلوك المنحرف عن جادة الصواب.

ومن آثار هجر التدبر وإهمال إعماله في الحياة كذلك، انتشار الخرافات والشعوذة بين الناس واللجوء إلى السحرة والكهنة وغيرهم نظرا لغياب العقلية المنهجية ذات التفكير السليم التي يعالج الواقع بحكمة وموضوعية نابعة من فكر أصيل مستمد من الكتاب الكريم والسنة

---

[70]- محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، ت: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1413هـ، ج11، 283.

الصحيحة. فيلجأ الأفراد إلى الهروب من الواقع ومعالجته عن طريق المشعوذين والسحرة والدجالين في محاولة للتخلص من الواقع الأليم الذي يحيونه.

وهي أمراض اجتماعية وفكرية مترتبة على انتشار الجهل والتقليد وغيرهما من الأمراض الفكرية والاجتماعية التي باتت تهدد كيان الأسرة والمجتمع.

وكما أن التدبر في كتاب الله وآياته في الآفاق والأنفس، مفتاح لكل خير وصلاح، فإن هجر التدبر ونبذه مفتاح لكل شر ومعول هدم في كيان الفرد والمجتمع وسم زعاف يقتل قدرات الأفراد ويضيق الخناق على مواطن الإبداع والتفكير السليم فيها. وجل ما نراه ونحياه في مجتمعاتنا من تخلف وتأخر وضعف وتمزق أسري وغياب حضاري, ما هو إلا غيض من فيض إهمال التدبر في كتاب الله والإعراض عنه.

المبحث الخامس: عوائق إعمال التدبر في حياة الأفراد والمجتمعات

على الرغم من أهمية التدبر في حياة الفرد والمجتمع، إلا أن الملحوظ غياب هذه الفريضة وتخلفها عن واقع المسلمين اليوم، مما ينبئ بوجود عوائق لإعمالها في الحياة، ولعل أبرز هذه العوائق ما يلي:

- إتباع مغريات الحياة الدنيا دون التوقف والنظر في عواقبها. وقد أسهمت طبيعة الحياة المعاصرة في توطيد منهج التسرع وعدم التوقف والتأني والتأمل في مجريات الأمور والأحداث التي تخص الفرد بصورة مباشرة أو المجتمع عموما. وبذا أصبح الفرد يتصرف دون محاولة التوقف أو التفكير في نسق الحياة التي يعيشها وهذه نتيجة حتمية لطبيعة الحياة المعاصرة وإيقاعها السريع، ووسائلها الكفيلة بإشغال الفرد ذهنيا وعقليا وفكريا وعاطفيا بأمور لا تتجاوز متطلباته المادية الجسدية فقط.
- السير وراء التصورات الخاطئة عن الدين والقرآن الكريم، فقد أصبح الدين في نظر الكثيرين لا يتجاوز حد التبرك وإقامة بعض الشعائر والتوقف عند ذلك.
- التقليد الأعمى والجمود والتسليم المطلق للبشر والجري وراء آرائهم والاهتمام بها والإنصراف عن القرآن الكريم بمختلف الكتب التي لن تتجاوز حد النسبية وجريان الخطأ والصواب في حكمها باعتبارها آراء بشرية غير معصومة من الخطأ. وهذا كما أشرنا سابقا نهج حذّر منه الصحابة والرعيل الأول من السلف خشية الانصراف عن كتاب الله، في حين أن هذا هو ما يحدث اليوم فقد ازداد الاهتمام بالكتب والمدونات البشرية، حدا نخشى معه القول بأنها أصبحت بمجموعها (من شدة الإفراط في الاهتمام بها) تشكل سدا بين الناس وكتاب ربهم.
- البعد عن اللغة العربية وانتشار اللهجات العامية مما أسهم في تولد صعوبات في فهم القرآن الكريم مقارنة بماكان جاريا لدى الرعيل الأول. الأمر الذي يؤدي إلى عدم فهم معاني القرآن وعدم التأثر به أو الانفعال بآياته.

- التكبر عن قبول الحق والإصغاء إليه، فالتدبر في كتاب الله وتفهمه علم من الله عز وجل ولا ينال العلم بمعصية الله. قال تعالى: سأصرف عن آياتي الذين يتكبرونَ في الأرض بغير الْحق وإن يروا كُل آيةٍ لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيلَ الرشدِ لا يتخذُوه سبيلاً وإن يروا سبيلَ الْغي يتخذُوه سبيلاً ذَلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غَافلين [71].

- وجود خلل في مناهج التلقي والتعليم في مختلف المؤسسات التربوية والتعليمية. فمنذ أن دخلت المجتمعات المسلمة عصور التقليد والجمود، حدث الخلل في البحث العلمي واقتصرت الخبرات التربوية على التلقين النظري وانحصر التدريس في التلقين والتسميع والتحفيظ دون محاولة ممارسة التفاعل مع الخبرات الكونية والاجتماعية.. الأمر الذي ترتب عليه خلو العقلية المعاصرة في الأعم الاغلب من المنهج العلمي في التفكير.

وبذا باتت العقليات المسلمة شبه خالية من التفاعل الإيجابي مع الواقع أو محاولة تقديم حلول لمشاكل مجتمعاتها. فالثقافة والدراسات التي نعيش معها لا تبث فينا اكتساب ملكة البحث والدرس وكشف السنن والقوانين. ولا يشعرنا الكاتب الذي نقرأ له أن بحثه ليس كافيا وأن على الباحثين بعده أن يوضحوا الموضوع أكثر منه، كما لا يوحي إلينا بأن العلم قابل للزيادة فلا يحثنا على طلب المزيد منه ولا يعتذر عن ضآلة ما يقدمه ليس بالكلمات وإنما بالأسلوب نفسه الذي يستطيع به أن يدل على بث روح الدأب لكشف السنن وتوضيح القوانين. ثقافتنا توحي بأن العلم خلق كاملا فلا يمكن المزيد عليه وكأن البحوث انتهت، وكذلك العلاقة بين التلميذ والمعلم حيث يوحي المعلم بأنه يعلم كل شيء ..[72].

- عدم إعطاء الأولويات أهميتها فينشغل الفرد بالأقل أهمية على حساب الأهم تصوراً واعتقاداً أن العلم يتوقف عند مجموعة من الكتب، وهذا خطأ فاحش. فلم يرد أمر في القرآن للرسول صلى الله عليه وسلم بطلب الزيادة منه إلا العلم. قال تعالى: وقُل رب زِدني عِلْما [73].

---

[71]- سورة الأعراف، الآية 146.

[72]- جودت سعيد، العمل، دار الثقافة، دمشق، 1400هـ/1980م، ص 183.

[73]- سورة طه، 114.

- الوقوف عند العناية بالقدرة على الحفظ وتقليل قيمة القدرات العقلية الأخرى وإهمالها أحيانا مما أسهم في خلق بيئة ثقافية غير صالحة لتنمية القدرات العقلية وتطويرها.

والمتتبع لطريقة التعليم عند العرب الأوائل يلمس ما كانت تتميز به من كثرة النقاش والجدل بين أطراف العملية التعليمية، فما أن ينتهي المعلم من درسه، حتى توجه إليه الأسئلة من كل صوب، وينصح البعض بأن تكون الأسئلة في نهاية الدرس، ومن ثم فلا يصح أن يقاطع الطالب معلمه بسؤال ما وإنما يصبر حتى ينتهي الدرس.

وعلى هذا هاجم ابن خلدون بشدة، الطريقة اللفظية في التعليم، وذهب إلى أن الحفظ بغير فهم معوق لملكة الفهم، ولذلك فهو يلوم المدرسين الذين يعتمدون على طريقة الحفظ والتسميع لأن التعليم بهذه الطريقة لا يترك أثراً في عقول التلاميذ.

ويدعو ابن خلدون إلى نبذ هذه الطريقة وإتباع ما يشبه الطريقة العلمية في مناقشة مشكلات العلم، ويكون ذلك بطريقة المحاورة والمناظرة في المسائل العلمية والاعتماد على ملكة الفهم عند التلاميذ مع دراسة النمو العقلي لهم ومراعاته والاستعانة ما أمكن بالأمثلة الحسية التي تقرب الموضوعات إلى أذهان التلاميذ. يقول في ذلك: وأيسر طرق هذه الملكة، ملكة الفهم وهو فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية، فهذا الذي يقرب شأنها ويحصل مرادها). ويؤكد على أهمية الحوار في العملية التعليمية فيقول:

(فنجد طالب العلم منهم، بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية، سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة، فلا يحصلون على طائل من ملكة التصريف في العلم والتعليم، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل، نجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر أو علم، **وما أتاهم من قصور إلا من رداءة طريقة التعليم وانقطاع سنده،** وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم بأنه المقصود في الملكة العلمية وليس كذلك"[74].

---

[74]- نقلا عن عبدالرزاق المكي، الفلسفة عند ابن خلدون، مطابع رويال،الاسكندرية، 1970م، ص 97.

في حين أن الاهتمام بالمناظرة والمناقشة في عملية التعليم يكسب عملية التعليم نشاطاً وحيوية، ويقوي الناحية الإيجابية والتلقائية إذ يجعل المتعلم يساهم في تعليم نفسه، وشحذ ذهنه وأطلق لسانه ويعوده القدرة على النقد والتفكير وجودة التعبير وقوة الإقناع، كما يكسبه جانباً كبيراً من حرية الفكر والثقة بالنفس ويعالج كثيراً من العيوب الناشئة عن طريقة الحفظ الآلية.

- افتقار المؤسسات إلى الخبراء والمتخصصين القادرين على تنمية وبث روح الاهتمام بالقدرات العقلية في أفراد المجتمع سواء أكان ذلك عن طريق محاضرات دورية أو ورش عمل متخصصة. فالحاجة ماسة لقيام وإنشاء مؤسسات تربوية تفرز نماذج جديدة من المختصين ممن تكون لديهم كفاءة علمية كافية لتأهيل نماذج جديدة قادرة على التفاعل الإيجابي مع الخبرات العلمية والكونية والاجتماعية وتسخيرها لخدمة الفرد والمجتمع.

- التعليم الذي تقدمه المؤسسات التربوية على وجه العموم لا يبث في الفرد ملكـة البحـث العلمي والكشف عن السنن والقوانين التي أمر القرآن الكريم باكتسابا وتطويرها وتنميتـها. قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[75]

في حين أن العرب أدركوا أهمية توجيه التلاميذ على حسب مواهبهم، وكانت عملية التوجيه هذه تبدأ بعد أن يجتاز التلميذ المرحلة الأولى للتعليم، وقد ذكر (حاجي خليفة) و (أبو يحيى الأنصاري) أن على كل صبي أن يعرف طرفاً من العلوم الضرورية في الحياة كالقراءة والكتابة والحساب، ثم عليه بعد ذلك أن يتجه إلى العلم أو الحرفة على حسب استعداده وتكوينه، إذ ليس كل فرد يصلح لتعلم العلوم يصلح لجميعها.. وإلى نفس المعنى ذهب (جابر بن حيان)، إذ أوجب على المعلم أن يمتحن قريحة المتعلم، ويعني بالقريحة،جوهر المتعلم الذي طبع عليه ومقدار ما فيه من القبول، والإصغاء إلى الأدب إذا سمعه وقدرته على حفظ ما قد تعلمه وعلى تذكره، فإذا وجد المعلم في تلميذه قبولاً، ذا أرض زكية وجوهر ترتضع فيه المعلومات كلما

[75]- سورة العنكبوت، الآية20.

ارتسمت فيه، أخذ يسقيه أوائل العلوم التي تتناسب مع قدرته على القبول وتتناسب مع سنه وخبرته، ولم يزل به يلقنه العلم أولاً، وكلما احتمل الزيادة زاده، مع امتحانه فيما قد تعلمه، فإن كان حافظاً لما كان سقاه وغير مضيع له، زاده في الشرب والتعليم، وإن وجده ينسى ويتخبل في حفظه، أنقص له المقدار، وعاتبه على ذلك، ثم امتحنه بعد ذلك ثانياً وثالثاً فإن وجده على ما كان عليه سابقاً، هزه بالعتاب وأوجعه بالتقريع[76]..

- كثرة الضغوط التربوية منذ الصغر التي تحول بطبيعتها دون حرية التفكير والإبداع. فالطفل في مجتمعاتنا يمنع (في كثير من الأحيان) من لمس مواد البيئة المحيطة به منذ الصغر ويتعرض للعقاب إذا حاول التعرف عليها من قبل الوالدين أو المربين، في حين أن تلك المرحلة هي من أهم المراحل في حياة الطفل للتعرف على الأشياء وتنمية القدرات لديه.

وتواصل المدارس والمؤسسات التربوية كبت حريات الطفل المشروعة تماما، سواء أكانت الحرية في الحركة أو الكلام أو التفكير أو الاختيار. وعلى الطالب تلقي المعلومات دون مناقشة أو مشاركة أو تمحيص أو تفكير فيها. وهكذا تتضافر المؤسسات التربوية بدءا من البيت حتى الجامعة بخنق القدرات العقلية لدى النشء وكبتها وتخريج أناس لا يحسنون سوى ترديد المعلومات فقط[77].

---

[76]- زكي نجيب محفوظ، جابر بن حيان، سلسلة أعلام العرب (3)، مكتبة مصر، 1962، ص 49.

[77]- الكيلاني، مرجع سابق، ص 98.

المبحث السادس: من وسائل تفعيل التدبر

يستدعي الحديث عن التدبر، محاولة تقديم خطوات عملية تعين المتلقي على تفعيل التدبر في حياته وإعماله من جديد. ولا ينبغي في أثناء إجراء هذه العملية، إغفال دور الناشئة ومحاولة تدريبهم على قدرة التدبر وتنميتها فيهم. حيث أن تنشئة الجيل على ذلك في هذه المرحلة المبكرة يؤتي ثمارا إيجابية تفوق مثيلاتها من محاولات في مراحل عمرية متقدمة.

فالإنسان يولد مزودا بقدرات عقلية، ولكنها تكون بحاجة إلى تنمية وتدريب على حسن استعمالها ورعايتها. ونجاح هذه العملية هو الكفيل بتفعيل التدبر.

ومن أهم **وسائل تفعيل التدبر القلبية** تجديد **النية والصدق** في **العزم** على تعلم القرآن وتفهمه والاستعانة بالله أولا على تدبرة والإلحاح في الدعاء والمسألة في ذلك.

والنية تكون في القلب بداعية صادقة لا يمازجها رياء ولا فتور ويتلافى بها المسلم كل تفريط، فيحمله على كل سبب ينال به الوصول إلى التدبر ويقطع كل سبب يحول بينه وبين التدبر في كتاب الله. وما فاته من الفرص السابقة تداركها بحسب الإمكان فيصلح قلبه بالنية ويعمره بالإخلاص.

كما ينبغي للمتدبر في كتاب الله ألا يأتي إلى كتاب الله ليماري به أحدا أو يعضد به رأيا رآه أو فكرا جال في خاطره، بل يأتي للقرآن طالبا الهداية منه، تاركا وراء ظهره دواعي المدح والثناء من الخلق معرضا عن كل ما يحول بينه وبين ابتغاء رضى الله عز وجل.

يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك:" ا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي"[78].

ويندرج تحت ذلك أن يتدبر القرآن بنية العمل به فيقف عن الآيات ويبحث في مقاصدها وما تريده منه وما تأمره به وما تنهاه عنه. فالقرآن كتاب يربي النفس ويترقى بها ويزكيها. فالتدبر وسيلة للعمل والتطبيق في الواقع والحياة.

78- ابن قيم الجوزية، التبيان في أقسام القرآن، مرجع سابق، ج1، ص 144.

ولذا جاء عن صحابة رسول الله صلة الله عليه وسلم أن رسول الله كان يقرؤهم العشر فلا يجاوزونها إلى غيرها حتى يتعلموا ما فيها من العمل فتعلموا العلم والعمل جميعا[79].

ومن أهم **وسائل تفعيل التدبر التربوية** ما يلي:

- تعليم المتعلم عادات وسلوكيات قرآنية منذ نعومة أظافره، كتنظيم الوقت واستغلاله بشكل صحيح، وربط تلك السلوكيات بآيات القرآن وإعطاء المتعلم (حسب الفئات العمرية) تدريبات من القرآن الكريم ليستنبط منها تلك السلوكيات. ومن ذلك التركيز على الأخذ بالقصص القرآني في التربية والتعرف على الكون والحيوان والنفس من خلال النظر في آيات القرآن الكريم لينشأ الجيل على الربط بين القرآن الكريم والكون والنفس.

- توفير البيئة اللازمة لتنمية التدبر السليم من خلال نبذ التقليد وتوعية الناس بأهمية التفكير السليم والعودة إلى كتاب الله وتدبره وترك الفرقة والنزاع والبعد عن التكبر عن قبول الحق والإصغاء إلى الحق، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أولى الناس بها.

- تفعيل وسائل التدبر الإدراكية في النفس والتي من أهمها السمع. وهو أساس العلم المنقول. وقد أمر الله به وأثنى على أهله وأخبر أن لهم البشرى. قال تعالى: وإِذَا سمِعواْ ما أُنزِلَ إِلَى الرسول ترى أَعينهم تَفِيض مِن الدمع مِما عرفُواْ مِن الْحق يقُولُونَ ربنا آمنا فَاكْتبنا مع الشاهِدِين .[80]

والسمع في اللغة حس الأذن وقد يطلق ويراد به القبول والعمل بما يسمع[81].

وفي المصباح المنير: سمعت كلامه أي فهمت معنى لفظه فإن لم تفهمه لبعد أو لغط فهو سماع صوت لا سماع كلام فإن الكلام ما دل على معنى تتم به الفائدة وهو لم يسمع ذلك[82].

---

[79]- تفسير القرطبي، مرجع سابق، ج1، ص 39.

[80]- سورة المائدة، الآية 83.

[81]- ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ج8، ص 162. وانظر الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، بـدون تاريخ، ج1، ص 943. الرازي، محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1995م، ج1، ص 132.

[82]- المقري الفيومي، أحمد بن محمد: المصباح المنير، بدون تاريخ، المكتبة العلمية، بيروت، ج1، ص 289.

وقد ذُكر السمع في القرآن الكريم بمشتقاته في 185 موضعا. **وجميع المواضع الـتي ورد فيها ذكر السمع وحاسة الأذن، كانت للدلالة على الوظيفة التي يقوم بها هذا الجهاز**، وهي السماع واستقبال الحديث الموجه للسامع.
والسماع أصل العقل وأساس الإيمان الذي انبنى عليه وهو رائده وجليسه[83]. فالإنسان يستقبل عن طريق السمع المعلومات ويقوم بنقلها إلى الدماغ ليحوّلها إلى حس مدرك. من هنا كـان السمع أهم النوافذ المعرفية التي يستقبل الإنسان من خلالها المعلومات الخارجية.

وقد ذُكر السمع متقدما على الحواس كلها في أغلب المواضع في القرآن الكريم، وهذا التقديم له دلالته العلمية التي لم تكن معروفة سابقا. فقد كشف علماء الفسيولوجيا والتشريح أن **جهاز السمع أرقى واعقد وأدق وأرهف من جهاز الأبصار ويمتاز عليه بإدراك المجردات وإدراك التداخل** مثل حلول عدة نغمات داخل بعضها البعض مع القدرة على تمييز كل نغمة على انفراد في لحظة من الزمن. في حين أن العين تتوه في زحام التفاصيل ولا تعثر على ضالتها[84]. يقول تعالى: والله أخرجكُم من بطُون أُمهاتِكُم لاَ تعلَمونَ شيئًا وجعلَ لَكُم السمع والأبصار والأَفْئِدةَ لَعلكُم تشكُرونَ [85].

إلا أن حاسة السمع وغيرها من الحواس ما هي إلا وسائل متنوعة لحقيقة واحدة هـي (الادراك) وتحويل المسموعات إلى معاني ومفهومات ومدركات. فحاسة السمع تشترك مـع القلب والعقل في إدراك معاني الألفاظ المسموعة والمنقولة إليها. وإذ لم تشترك وتوقف السمع عند التقاط الأذن فحسب، نفي عن الإنسان السمع مع امتلاكه القدرة على التقاط الأصوات والألفاظ عبر الأذن، لأن المعول عليه سماع الفهم لا سماع الألتقاط والإدراك الذي يشـترك الإنسان فيه مع سائر المخلوقات.

---

[83]- الجوزية، ابن قيم: مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1973م، ج1، ص 482.
[84]- الجوزية، ابن قيم: بدائع الفوائد، تحقيق: هشام عطا وعادل عبد الحميد وأشرف أحمد، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة، 1416هـ/1996م، ج1، ص 77.
[85]- سورة النحل: 78

فحقيقة السمع **تنبيه القلب على معاني المسموع وتحريكه عنها طلبـا أو هربـا وحبـا أو بغضا**[86]. فالأمر بالاستماع للقرآن إنما هو بمعنى تدبره لأن نفس السماع لا ينفع وإنما ينفـع التدبر[87].

وقد تعرض ابن القيم رحمه الله إلى هذه الجزئية من خلال تتبعه لنصوص القرآن الكريم وقـام بتقسيم السمع إلى أنواع وفق المرحلة التي تمر با عملية السماع. فذهب إلى أن سماع الفهـم بمعنى أن تتحول المسموعات إلى مدركات تفهم بالعقل، جاء في القرآن منفيـا عـن أهـل الإعراض والغفلة بقوله تعالى: فَإِنك لَا تسمِع الْموتى ولَا تسمِع الصـم الـدعاء إِذَا ولَّـوا مدبِرين وما أَنت بِهادِي الْعمي عن ضلَالَتِهِم إِن تسمِع إِلَّا من يؤمِن بِآياتِنا فَهم مسلِمون [88]. وقوله : إِن الله يسمِع من يشاء وما أَنت بِمسمِعٍ من فِي الْقُبورِ [89]. فهم قد سمعوا سمـع الإدراك ولكنهم تولوا وهم معرضون، لأن في قلوبم من دواعي التولي والإعراض ما يمـنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

فالتخصيص ههنا <u>لإسماع الفهم والعقل</u> وإدراك المسموعات والتفكر فيها بالعقل والقلب. وإلا فالسمع العام بحاسة الأذن فقط، قد قامت به الحجة ولا تخصيص فيه. فالكلام له لفظ ومعنى وله نسبة إلى الآذان والقلب وتعلق بما فسماع لفظه حظ الأذن، وسمـاع حقيقـة معنـاه ومقصوده حظ القلب[90].

وأما سماع القبول والإجابة فهو ما جاء حكاية عن مؤمني الجن قولهم: قُلْ أُوحِي إِلَي أَنـه استمع نفَر من الْجِن فَقَالُوا إِنا سمِعنا قُرآنا عجبا يهدِي إِلَى الرشدِ فَآمنا بِهِ ولَن نشرِك بِربنـا أَحدا [91] فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة، المثمر للطاعة.

---

[86]- ابن قيم، مدارج السالكين، مرجع سابق،ج1، ص 517.

[87]- فخر الدين محمد بن عمر الرازي، التفسير الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، 1421هـ، ج23، ص 60.

[88]- سورة الروم، الآيات52-53

[89]- سورة فاطر، الآية 22.

[90]- بتصرف عن ابي السعود، تفسير ابي السعود، دار إحيار التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ، ج8، ص 2.

[91]- سورة الجن الآيات 1-2

فالله سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود من الآيات، ذلك السماع الذي هو حظ القلب، إلا أنه أثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن وهو المشترك بين سائر المخلوقات بل إن بعض الحيوانات تتفوق على الإنسان في قوة السمع من هذه الناحية.

من هنا كان نفي القرآن السماع عمن قام بتعطيل قلبه وعقله في تفهم وإدراك المسموع. قال تعالى: ولَقَد ذَرأْنا لِجهنم كَثِيرا من الْجِن والإِنسِ لَهم قُلُوب لا يفْقَهونَ بِها ولَهم أَعين لا يبصِرونَ بِها ولَهم آذَانٌ لا يسمعونَ بِها أُولَـئِك كَالأَنعامِ بلْ هم أَضلُّ أُولَـئِك هم الْغافِلُونَ [92].

فالقرآن أسقط في الآيات عن كل من قام بتعطيل عمل العقل والقلب في تعقل المحسوسات ومنها المسموعات، صفة الإنسانية لأن الميزة التي تميز بها عن الحيوان هي التعقل والقدرة الإرادية على تحويل تلك المحسوسات إلى مدركات. فلا قيمة للحواس إذا لم تتم الإفادة منها في المعرفة العقلية.

من هنا كانت حاسة السمع متعلقة أشد التعلق بالقلب، فهي تحتاج إليه للوصول إلى الكمال ووصول العلوم إليه[93]. قال تعالى: أَولَم يهدِ لِلذِين يرِثُونَ الأَرض مِن بعدِ أَهلِها أَن لو نشاء أَصبناهم بِذُنوبِهِم ونطْبع علَى قُلُوبِهِم فَهم لاَ يسمعونَ [94]. فالختم على القلب مدعاة لانقطاع وصول معاني الألفاظ إليه، فلا تتم مرحلة الفهم رغم سماع الأذن للألفاظ[95].

يقول ابن القيم في هذا السياق: " السمع ثابت لهم وبه قامت الحجة عليهم ومنتف عنهم وهو سمع القلب فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء ولم يسمعوه بالروح الحقيقي الذي هو روح حاسة السمع التي هي حظ القلب فلو سمعوه من هذه الجهة: لحصلت لهم الحياة الطيبة التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب ولزال عنهم الصمم والبكم، فحصول السمع الحقيقي مبدأ لظهور آثار

[92]- سورة الأعراف: 179.
[93]- ابن قيم، مدارج السالكين، ج2، ص 409.
[94]- سورة الأعراف: 100.
[95]- الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1405هـ، ج7، ص 170.

الحياة الطيبة التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل فتتم قوته وحياته وسروره ونعيمه وبجته .."[96].

وتتضافر النصوص القرآنية في تأكيد تلك المعاني وتنبيه العقل على أهميتها وضرورة توظيفهـا للوصول إلى الفهم والإدراك والانتقال منها إلى مرحلة القبول والإستجابة والتطبيق العملـي الذي يشكل الغاية الاساس من إنزال الخطاب القرآني الكريم، **وهي بدورها من أهم مراحل تدبر القرآن.**

وهذا السماع النافع لا يتحقق إلا لمن يؤمن بآيات الله ويتدبرها ويفهمها ويعقلها ويعمل بما فيها[97]. بيد أن تلك الغاية قد تعترضها بعض العقبات، فتحول دون تحقيق الغاية المرجوة. من هنا جاءت معالجة القرآن الكريم لتنقية الأجهزة المستقبِلة على مستويين: الأول في التخلص من العوائق والثاني في التأكيد على الخطوات اللازمة لتنشيط تلك الأجهزة.

وقد اعتنت نصوص القرآن الكريم بتحديد عدد من العقبات والعوامل التي يمكن أن تعيق الوصول بالإنسان إلى مرحلة سمع الإجابة والقبول، تلك المرحلة التي أولاها القرآن أهمية بالغة وأكد على ضرورة التوصل إليها والعمل على تفعيلها لإدراك معاني القرآن وتدبرها بشكل سليم. ومن تلك العوائق: الصد عن سبيل الله وإبعاد الناس عن طريق الحق. وقد جعل الله عز وجلّ تعطيل سمع هؤلاء وتوقف فهمهم وإدراكهم للخطاب جزاءا من جنس عملهم المتمثل في إبعاد الخلق عن طريق الحق، فكانت النتيجة إبعادهم هم عن هذا الطريق بتعطيل أهم وسائل الإدراك الإنساني السمع والبصر. قال تعالى: الَّذِين يصدونَ عن سبِيلِ اللّهِ ويبغونها عِوجا وهم بِالآخِرةِ هم كَافِرونَ. أُولَـئِك لَم يكُونواْ معجِزِين فِي الأَرضِ وما كَانَ لَهم من دونِ اللّهِ مِن أَولِياء يضاعف لَهم الْعذَاب ما كَانواْ يستطِيعونَ السمع وما كَانواْ يبصِرونَ[98].

---

[96]- ابن قيم، مدارج السالكين، ج2، ص 411.

[97]- الطبري، مرجع سابق، ج21، ص 56.

[98]- سورة هود: 19-20.

ومما يعيق سمع الإنسان وإدراكه كذلك، لهو القلب وانشغاله عن تعقل معاني الألفاظ المسموعة بأي شاغل يحول بين القلب وتفهم معاني المسموع. قال تعالى: ما يأْتِيهم من ذِكْرٍ من ربهم محدثٍ إلا استمعوه وهم يلْعبونَ لَاهيةً قُلُوبهم وأَسروا النجوى الَذِين ظَلَموا هلْ هذَا إلا بشر مثْلُكُم أَفَتأْتونَ السحر وأَنتم تبصِرونَ [99].

وقد أظهرت دراسات علماء النفس في مجال الإدراك أن تركيز الانتباه عند الاستماع والمعرفة الأولى من أهم الخطوات للإدراك السليم وهذا كله يتطلب من الإنسان التفـرغ للموضـوع المسموع وعدم الإنشغال بما سواه وإبعاد عوامل التشتت المختلفة، كما أكدت الدراسـات على أهمية توجيه التركيز لفهم المعاني وتوضيح الجزئيات بعيـدا عـن الشـرود في الـذهن والتشويش أثناء عملية السماع.

ومن العوائق الخطرة الاستكبار عن الاستماع وهو من أخطر وأصعب العوائق. قال تعالى: وإِذَا تتلَى علَيهِ آياتنا ولى مستكْبِرا كَأَن لم يسمعها كَأَن فِي أُذُنيهِ وقْرا فَبشره بِعذَابٍ أَلِيمٍ [100]. قال تعالى: ويلٌ لكُل أَفاكٍ أَثِيمٍ يسمع آياتِ اللهِ تتلَى علَيهِ ثُم يصِر مستكْبِرا كَأَن لم يسمعها فَبشره بِعذَابٍ أَلِيمٍ [101].

ولا تخفى خطورة هذا المرض الذي كان من أهم أسباب عصيان إبليس لأمر الله بالسـجود. فقد تعظم وتكبر عن طاعة الله في السجود لآدم. وفي الآية تقريع لضربائه من خلق الله الذين يتكبرون عن الخضوع لأمر الله والانقياد لطاعته فيما أمرهم به وفيما نهاهم عنه والتسليم لـه فيما أوجب. فهو بعد أن ينعم الله عليه بسماع آياته، يبقى على إصراره وعناده، فلا يولـد السماع لديه، استجابة وخضوعا لأمر الله بل على العكس يتولد عنه تكبرا واسـتنكافا عـن الانقياد لأوامره، فكان منعهم الفهم فيما بعد بما نكصوا واستكبروا عن السماع الأول.

---

[99]- سورة الأنبياء:21
[100]- سورة لقمان:7.
[101]- سورة الجاثية:7-8.

قال تعالى: ﴿ومِنهم من يستمِع إلَيك وجعلْنا علَى قُلُوبِهم أَكِنةً أَن يفْقَهوه وفي آذَانِهم وقْرا وإِن يروا كُل آيةٍ لا يؤمِنوا بِها حتى إِذَا جآؤوك يجادِلُونك يقُولُ الذِين كَفَروا إِنْ هـذَآ إِلا أَساطِير الأَولِين﴾[102]. أي فعلنا ذلك بم مجازاة على كفرهم وليس المعنى أنهم لايسمعون ولايفقهون ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون ولاينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لايسمع ولا يفهم[103].

وفي الآيات تأكيد على أهمية تدبر القرآن الكريم والإصغاء إليه بتمعن وتفهم. فالخطاب موجه للنبي عليه الصلاة والسلام بمعنى يا محمد من يستمع القرآن منك ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك وأمره ونهيه، ولا يفقه ما تقول ولا يعيه قلبه ولا يتدبره ولا يصغي له سمعه ليتفقهه فيفهم حجج الله عليه في تنزيله الذي أنزله عليك، إنما يسمع صوتك وقراءتك وكلامك ولا يعقل عنك ما تقول لأن الله قد جعل على قلبه أكنة وأغطية تحول بينه وبين وصول الخطاب ومعانيه[104].

ومما يعيق فعالية السمع ووصوله إلى المعاني والمرامي من المسموع، كثرة الاستماع للغو من الكلام واللغو قد يطلق ويراد به الكلام الباطل وقد يراد به الكلام الذي لا فائدة من ورائه ولا يحتاج إليه[105].

وأدخل بعض العلماء مختلف المحرمات والمنهيات من المسموعات في نطاق اللغو فقالوا اللغو كل سقط من قول أو فعل فيدخل فيه الغناء واللهو وغير ذلك مما قاربه ويدخل فيه سفه المشركين وأذاهم المؤمنين وغير ذلك من المنكر وقال ابن عباس رضي الله عنهما هو الباطل والقول الذي لافائدة فيه[106].

وقد اختطت النصوص القرآنية منهجا واضحا لعلاج تلك العوائق والخلاص منها منذ لحظة بدايتها، فأثنى على المعرضين عن كافة أنواع المسموعات الممنوعة والمنهي عنها من أولها.

[102]- سورة الأنعام:25.
[103]- القرطبي، محمد بن أحمد: تفسير القرطبي، تحقيق: احمد البردوني، دار الشعب، الطبعة الثانية، مصر، 1372هـ، ج6، 404.
[104]- محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، مرجع سابق، ج7، ص 169.
[105]- القرطبي، مرجع سابق، ج3، ص 99.
[106]- القرطبي، مرجع سابق، ج 13، ص 80.

قال تعالى: وإذا رأيت الذين يخوضونَ في آياتنا فَأعرض عنهم حتى يخوضواْ في حديثٍ غيره وإما ينسينك الشيطانُ فَلاَ تقْعد بعد الذكْرى مع الْقَومِ الظالمين [107].

وجاء التأكيد على مسئولية الإنسان عن ما يطرقه سمعه من أحاديث وأقوال وحض على الانتقائية في السماع للكلام من خلال صرف الذهن عن تمرير الألفاظ المسموعة (غير المسموح بها) بمنطقة الوعي بالدماغ بمعنى رفضها وردها من منطقة الأذن مباشرة، وعدم الانتقال بها إلى مرحلة الإدراك، وهذا أمر إرادي يستطيع الإنسان التحكم فيه وتمرين الأذن البشرية عليه من خلال الإعراض المتواصل عن اللغو.

من هنا جاء ثناء القرآن على المعرضين عن اللغو المعرضين إعراض اختيار عن اللغو حيث قال: وإذا مروا باللغو مروا كراما [108]. وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكُم سلَام علَيكُم لَا نبتغي الْجاهلين [109]. وماذلك إلا لكون تلك الأعمال اختيارية داخلة ضمن إرادة الإنسان ورغبته.

وأكد القرآن الكريم على أهمية النأي والابتعاد عن مجالس الفحش والسخرية والكفر والنفاق والاستهزاء بآيات الله من خلال تسويته بين القائل لها والمستمع في الإثم والعدوان، ليحمل الإنسان مسئولية ما يسمعه وما يطرق سمعه[110]. قال تعالى: وقَد نزلَ علَيكُم في الْكتابِ أنْ إذَا سمعتم آياتِ اللّهِ يكْفَر بها ويستهزأُ بها فَلاَ تقْعدواْ معهم حتى يخوضواْ في حديثٍ غَيرِه إنكُم إذًا مثْلُهم إن اللّه جامع الْمنافقين والْكَافرين في جهنم جميعا [111].

وتأكيد القرآن الكريم على تلك العوائق، يوضح دورها في تشويش الذهن والحيلولة دون وصول معاني الخطاب القرآني، يقول ابن القيم في هذا السياق:" وإدمانه(يعني الغناء)

---

[107]- سورة الأنعام:68.

[108]- سورة الفرقان: 72

[109]- سورة القصص:55.

[110]- ابن تيمية: الاستقامة، ت: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، السعودية، 1403هـ، ج1، ص 217. وأنظر كذلك في أنواع اللغو والسماع المذموم: الجوزية، ابن قيم: إغاثة اللهفان، ت: محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، 1975م، ج1، ص 226.

[111]- سورة النساء: الآية 140.

يثقل القرآن على القلب ويكرهه إلى سماعه بالخاصية وإن لم يكن هذا نفاقا فما للنفاق حقيقة وسر المسألة: أنه قرآن الشيطان(يعني الغناء) فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن في قلب أبدا.."[112].

وقد أوضح القرآن الكريم بعض الوسائل التي يمكن من خلالها تفعيل دور السمع ووصول المعاني المسموعة إلى العقل والقلب. ومن تلك الوسائل الإصغاء والاستعداد للتلقي لآيات القرآن الكريم ويتضح ذلك جليا في قوله تعالى: وكَم أَهلَكْنا قَبلَهم من قَرنٍ هم أَشد ِمنهم بطْشا فَنقبوا ِفي الْبِلَادِ هلْ ِمن محِيصٍ. إن ِفي ذَلِك لَذِكْرى ِلمن كَانَ لَه قَلْب أَو أَلْقَى السمع وهو شهيد 113.

والمقصود هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكا وفهما وتدبرا وإجابة، وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنى عليهم وأمر به أولياءه فهو هذا السماع وهو سماع الآيات..الذي يسوق القلوب إلى علام الغيوب ويرتقي بالمؤمن إلى أرفع الدرجات. ..فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادا لحجة وتبصرة لعبرة وتذكرة لمعرفة وفكرة في آية ودلالة على رشد وردا على ضلالة وإرشادا من غي وبصيرة من عمى وأمرا بمصلحة ونهيا عن مضرة ومفسدة وهداية إلى نور وإخراجا من ظلمة وزجرا عن هوى وحثا على تقى وجلاء لبصيرة وحياة لقلب وغذاء ودواء وشفاء وعصمة ونجاة وكشف شبهة وإيضاح برهان وتحقيق حق وإبطال باطل[114].

والقرآن الكريم يحذر المؤمنين من السماع بحاسة الأذن فقط ويحثهم على سماع الفهم والوعي والإدراك قبل إصدار أي حكم في قضية من قضاياهم أو مشاكلهم الحياتية، لما يترتب على السماع بالأذن فقط دون التفهم والتعقل من مشاكل متعددة ومخاطر قبل التثبت والتروي والتأني في إصدار الحكم واتخاذ القرار. قال تعالى: ِإذْ تلَقونه ِبأَلْسِنتِكُم وتقُولُونَ ِبأَفْواهِكُم ما لَيس لَكُم ِبهِ ِعلْم وتحسبونه هينا وهو ِعند اللهِ عظِيم. ولَولَا ِإذْ سمِعتموه قُلْتم ما يكُونُ لَنا

112- ابن قيم الجوزية، المرجع السابق، ج1، ص 250.

113- سورة ق:36-37.

114- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ، ج1، 483 وما بعدها.

أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم. يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين [115].

- ومن وسائل تفعيل التدبر تنقية البصر . وقد **ورد** الحديث عن البصر في عشرات الآيات القرآنية مع اختلاف اللفظ المستعمل للتعبير عنها، فتارة يأتي اللفظ معبرا بكلمة" بصر" وثانية بكلمة" رأى" وثالثة بكلمة " نظر".

أما كلمة بصر فتطلق على الجارحة الناظرة كما في قوله تعالى: كلمح البصر [116] ومنها لفظة الفعل أبصرت ومنها قوله تعالى: ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون [117]. أما قوة القلب المدركة فيقال لها بصيرة نحو قوله تعالى: لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد [118]. وهي اعتقاد في القلب من الدين وتحقيق الأمر[119]. فالبصيرة تختلف عن البصر فهي قوة القلب المدركة وجمعها بصائر، أما البصر فجمعها أبصار.

أما كلمة نظر ومشتقاتها فتطلق ويراد بها تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والتفحص لإدراك الشيء ورؤيته[120] ومنها قوله تعالى: قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون [121].

أما رأى ومشتقاتها فالرؤية تعني النظر بالعين والقلب وإدراك المرئي. فالرؤية هي الخطوة التالية للنظر، وهي التي تتم بها عملية الإبصار، فهي الخطوة الحاسمة التي يراد الإبصار لأجلها. ونظرا لأهميتها، فإن القرآن كثيرا ما يعطي لفظ «رأى» ومشتقاته الأولوية في التعبير عن عملية الإبصار كلها خصوصا إذا كان الهدف الرئيسي منها هو التدبر والاعتبار.

---

[115]- سورة النور، الآية 15-17.

[116]- سورة النحل: 77

[117]- سورة السجدة: 12

[118]- سورة ق: 22

[119]- أنظر ذلك في : الأصفهاني، الراغب: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ، ص 49.

[120]- راجع في ذلك: الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 19743م، ج14، ص 245. الزين، سميح عاطف: معجم تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 2001م، مادة نظر، ص 888.

[121]- سورة يونس: 101.

والقرآن الكريم في سياق حديثه عن تفعيل وسيلة الإبصار وأهميتها، وضع أسسا وأطوارا مختلفة للإدراك البصري الصحيح، تلك الأسس التي لم يكشف العلم الحديث النقاب عنها إلا مؤخرا. فالإدراك الحسي بواسطة البصر لابد أن يبدأ بنظرة كلية إجمالية ومن ثم يبدأ بتحليل الموقف وإدراك العناصر المكونة له والعلاقات القائمة بين أجزائه المختلفة ثم إعادة تأليف تلك الأجزاء في كُلّ موحد والعودة إلى النظرة الكلية مرة ثانية. ولقد تضمنت آيات سورة الملك تلك الأسس العلمية في قول الله تعالى: الذِي خلَق سبع سماواتٍ طِباقًا ما ترى فِي خلْقِ الرحمنِ مِن تفَاوتٍ فَارجِعِ الْبصر هلْ ترى مِن فُطُورٍ. ثم ارجِعِ الْبصر كَرتينِ ينقَلِب إِلَيك الْبصر خاسِأً وهو حسِير [122].

فالأمر أولا باستعمال العين أداة الإبصار وهي الجارحة والنظر نظرة إجمالية في السماء، ثم تقليبها وتعقب العناصر والجزئيات والعلاقات للتوصل إلى النتيجة وهي انعدام رؤية فطور أو شقوق أو تصدع في خلق السماء. والرؤية – المشار إليها في الآية بلفظة ترى- لا تقتصر على العين المجردة بل يرافقها التأمل والتمعن والتفحص فكان الموافق للسياق استعمال كلمة " ترى" وليس نظر أو بصر.

وتعاود الآية التأكيد على ذلك بقوله تعالى في تمام الآية: ما ترى فِي خلْقِ الرحمنِ مِن تفَاوتٍ في حين أن الإنسان لا يسعه أن يرى خلق الرحمن بأكمله، ولكن القرآن يريد أن يثبت للإنسان قضية عقلية يمكن أن يصل إليها من خلال تدبره وهي قياس ما لا يراه من خلق الله على مايراه ويتأمله من الدقة والاتساق والنظام البديع.

وحيث أن المراد من ذلك كله إثبات مسألة عقلية كان استعمال اللفظة القرآنية ترى دون غيرها مثل نظر أو بصر. وبهذا تصبح عملية الإبصار عملية عقلية محضة تتضافر فيها مختلف الوسائل الإدراكية لبلوغ المعنى المراد الذي قد يكون فاصلا بين الإيمان والكفر في آن واحد.

[122]- سورة الملك: الآيات 3-4.

ولا تقتصر عملية الإبصار في القرآن الكريم على الآيات المقروءة بل تتجاوزه لتؤكد دورها في إبصار الآيات المشهودة في الكون، فالمرء يكون أمام كتابين يقتضيان إبصار حقائقهما معـا وتلاوتهما في وقت واحد: **الكون المنظور والقرآن المقروء.** يقول ابن قيم الجوزية رحمه الله في ذلك:" الرب تعالى يدعو عباده في القرآن الي معرفته من طريقين احدهما النظر في مفعولاته والثاني التفكر في آياته وتدبرها فتلك آياته المشهودة وهذه آياته المسموعة المعقولة.."[123]

من هنا جاء التأكيد في القرآن الكريم على أهمية النظر في الخلق والكون وسير الأمم السابقة، بمعنى التأمل والتفحص فيها والتمعن وإدراك حقيقتها لا بالعين فحسب بل بالقلـب فهمـا وتعقلا وتدبرا. وكما أن القرآن أكد على أهمية الربط بين حاسة السمع والقلب والعقل، أكد كذلك على الربط بين العين والقلب والعقل.

بل إن النصوص القرآنية أشارت إلى حقيقة أخرى، وهي أن العمى الحقيقي والعجز عن الإبصار لا يتمثل أو يكمن في عمى العين الجارحة على سبيل الحقيقة، بل هو عمى القلب وإن كانت جارحة العين سليمة تستطيع النظر إلى الأشياء، ليثبت دور القلب في تعقل معاني المرئيات وإدراكها.قال تعالى: أَفَلَم يسِيروا فِي الْأَرضِ فَتكُونَ لَهم قُلُوب يعقِلُونَ بِها أَو آذَانٌ يسمعونَ بِها فَإِنها لَا تعمى الْأَبصار ولَكِن تعمى الْقُلُوب الَّتِي فِي الصدورِ [124].. وفي قوله تعالى: ما كَذَب الفُؤاد ما رأى [125]. فالقلب في الخطاب القرآني مسؤول عن الرؤية المبصرة للحقائق وللمرئيات المنظورة بالعين. يقول ابن قيم رحمه الله في ذلك" كل عضو من أعضاء البدن خلق لفعل خاص به كماله في حصول ذلك الفعل منه ومرضه: أن يتعذر عليه الفعل الذي خلق له حتى لا يصدر منه أو يصدر مع نوع من الاضطراب ..ومرض العين : أن يتعذر عليها النظر والرؤية"[126].

---

[123]- ابن قيم، الفوائد، ج1، ص 20.

[124]- سورة الحج: 46

[125]- سورة النجم: 11

[126]- ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان، ج1، ص 68.

فإذ كانت العين سليمة وكان الفؤاد في تشتت واضطراب، فالعين وان كانت تنظر جيدا إلا أن الإنسان لا يبصر شيئا، وقد ذكرت هذه الحقيقة العلمية في القرآن الكريم كما في سورة الأعراف: وَإِن تدعوهم إِلَى الْهدى لاَ يسمعواْ وتراهم ينظُرونَ إِلَيك وهم لاَ يبصِرونَ كما أشارت إليها آية أخرى من نفس السورة: إِن الَذِين اتقَواْ إِذَا مسهم طَآئِف من الشيطَانِ تذَكَروا فَإِذَا هم مبصِرونَ[127].

والقرآن الكريم بآياته والكون البديع بما فيه من عجائب القدرة الإلهية بصائر وتبصرة والمقصود أن المحل القابل للإبصار والاعتبار هو عين المؤمن المنيب إلى ربه الخائف منه، فإذا هداه الله واعتبر بالنظر فكأنه وصل أثر فعل ذلك النظر والإبصار إلى محل قابل فيتأثر به، فصارت الآيات له بصائر وتبصرة بالوجود والفعل والقبول. وإذا لم يكن المحل قابلا وصلت إليه الآيات فلم تؤثر فيه كما يصل الغذاء إلى محل غير قابل للاغتذاء فإنه لا يؤثر فيه شيئا بل لا يزيده إلا ضعفا وفسادا إلى فساده.

من هنا جاءت الآيات المتضافرة للحثّ على التدبر والتفكر من خلال النظر وإعمال الرؤية في الكون المشهود كما في:" أفَلا ينظُرون"، " أولمْ يروا" " ألمْ تروا"....الخ فالعين نافذة لإيقاظ القلب على مواضع الحسن والإتقان في العالم المرئي ومن ثمّ الانتقال في مرحلة تالية إلى زيادة الإيمان والخشية لله سبحانه صانع الكون وخالقه.

بيد أن ثمة أمور وعوائق قد تحول بين الإنسان ووصوله إلى مرحلة الإدراك المطلوبة للمرئيات من حوله وخاصة الكون المشهود والقرآن المقروء. وهو ما عبر عنه ابن القيم بأن العين تمرض فيتعذر عليها النظر والرؤية وليس المراد بالنظر الحسي فهذا أمر آخر بل المراد التعقل والإدراك للمرئي فينظر الإنسان إلى الشيء فلا يدرك له معنى ولا يخبر له مغزى ولا مرمى[128]. وقد لا يشعر المرء بخطورة ذلك المرض ولا باعتلال عوامل الرؤية عنده بحكم الاعتياد.

---

[127]- سورة الأعراف:201.

[128]- ابن قيم، إغاثة اللهفان، ج1ن ص 68.

ومن أبرز عوائق الإبصار السليم تشتت النظر وإطلاق البصر وعدم تركيـز الانتبـاه الذي يؤدي إلى حصر الطاقة العقلية في الموضوع المراد إدراكه بحيث تتداخل أمور متعددة في ذات الوقت مما يجعل إدراك المقروء والمشهود أمرا في غاية الصعوبة. **فالإنسان إذا نظـر إلى شيء بعينيه وعقله** وفكره منصرفا تماما عنه إلى شيء آخر، وهو ما قال عنه القرآن في بعض الأحيان " لاهية قلوبهم".

فالإبصار السليم لا يتم في غفلة القلب ولهوه وانصرافه إلى أمور آخرى. من هنا كان التأكيد على أهمية التركيز والانتباه لما نراه والخروج من حالة الاعتياد والإلفة التي قد تجعل الإنسـان يدخل في مرحلة النظر إلى ما لا يرى.

وقد أثبتت الدراسات النفسية الحديثة أن هذه الظاهرة لها أساس عضوي في الجهـاز العصبي في الإنسان ويعتقد أنـه يكمـن في نشـاط التكـوين الشـبكي Reticular Formation وأليافه العصبية الصاعدة منه إلى الـدماغ Reticular Activating System وهذا التكوين العصبي الذي يقع في ساق الدماغ ويمتد صاعدا إلى مراكز الدماغ العليا يقوم بدور البوابة التي تتحكم في النبضات العصبية والإثارة الصاعدة للـدماغ. فقـد يضخم التكوين الشبكي لدى بعض الأفراد من الإشارات العصبية التي ترسلها الأعضاء الحسية المختلفة إلى الدماغ فيتمتع الفرد بسبب ذلك بقدرة فائقة على التركيز الذهني ولفترات طويلة نسبيا[129].

ومن العوائق الهامة النظر إلى ما حرم الله ومنعه ونهى عنه وزجر المؤمن أن تمتد عينه إليـه ويشمل ذلك مختلف الصور والأمور المحرمة من النظر إلى أجنبية إلى غير ذلك من أمور وصور تمتد إليها العين. قال تعالى: قُل للْمؤمِنين يغضوا مِن أَبصارِهم ويحفَظُوا فُـروجهم ذَلِـك أَزكَى لَهم إِن الله خبِير بِما يصنعونَ [130].

---

[129]- بدري، مالك: التفكر من المشاهدة إلى الشهود دراسة نفسية إسلامية، الطبعة الثالثة، المعهد العالمي للفكر الإسلامين أمريكا، 1993م، ص 89-90.
[130]- سوة النور، الآية 29.

فالعين التي هي حاسة الإبصار نافذة الإنسان على المحيط به فجاءت كلمة يغضون مناسبة لسياق الآية الآمر بعدم النظر إلى ما حرم الله وقطع ذلك منذ أول مرحلة لأن النظـر أول مرحلة من مراحل عملية الإبصار فإذا قطع المؤمن ذلك المنفذ وأغلقه، سلم من عواقـب المراحل التالية من انشغال القلب بالصورة المرئية إلى الإفتتان بها إلى غير ذلك من مراحـل تالية للأولى.

ولابن القيم الجوزية رحمه الله كلام سديد في ذلك فقد أورد لغض البصر فوائـد عـدة ثم أوضح المناسبة بين الآيتين الواردة في غض البصر ثم قوله تعالى في سورة النور: الله نـور السماواتِ والْأرضِ..... نور علَى نورٍ يهدِي الله لِنـورِهِ مـن يشـاء [131]. يقـول في ذلك:"....وسر هذا أن الجزاء من جنس العمل فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه فإن القلب كالمرآة والهوى كالصدأ فيها فإذا خلصت المرآة مـن الصـدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه وإذا صدئت لم تنطبع فيها صور المعلومات فيكـون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون"[132].

وفي كلامه رحمه الله إرهاصات علمية، فذاكرة الإنسان تختزن غالبا عددا من الصـور السابقة والذكريات السالفة وما الرؤى والأحلام إلا صورا مختزنة في العقل البـاطن يراهـا الإنسان أمامه وكأنها تحدث اللحظة.

من هنا كانت أهمية تنقية الإنسان وفلترته لما تمتد إليه العين في النهار من أهم الوسائل لحفظ هذا الجهاز وصيانته من اختزان معلومات وصور مشوشة. إضافة إلى أن اطلاع الإنسان على

[131]- سورة النور: الآية 35.

[132]- ابن قيم، إغاثة اللهفان، ج1، ص 48.

ما لا ينبغي ونظره إلى المحرمات بأنواعها مدعاة لترتب الجزاء عليها من جنس ما قام به. ومنه قوله تعالى: أُولَئِكَ الَذِين لَعنهم الله فَأَصمهم وأعمى أبصارهم [133].

وقد فصل بعض العلماء ومنهم ابن تيمية رحمه الله في أنواع المحرمات والصور التي لا ينبغي للمؤمن النظر إليها تفصيلا دقيقا موضحا آثار ذلك على القلب وصفائه وطمس البصيرة والبعد عن الفهم في كتاب الله[134].

كما أورد ابن القيم على لسان الشيطان أهمية النظر المحرم في منع نظـر الاعتبـار والتفكـر المطلوب من الإنسان. يقول في ذلك: "ودونكم ثغر العين فان منه تنالون بغيتكم فـاني مـا أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر فاني أبذر به في القلب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الامنية ثم لا أزال أعده وامنية حتى أقوى عزيمته وأقوده بزمام الشهوة إلى انخلاع من العصمة فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم وهونوا عليه أمره"[135].

وكما أن القرآن الكريم أبرز العوائق التي تحول دون النظر السليم، فإنه أظهر الوسائل المعينة للتوصل إليه ومن ذلك، تدقيق النظر والتعرف على الكون المشهود.

إذ أن النظر الفاحص المدقق ينقل الإنسان من المعرفة الباردة المألوفة التي اعتادت الانظار عليها إلى المعرفة المنبهرة بدقة الصنع وجمال التنسيق وعظمته، وتذوق تلك المرئيات واستشـعارها والنظر إليها بعين متجددة.

فالنظر في الخلق والكون المشهود الذي دعت إليه عشرات النصوص القرآنيـة، مـن أهـم خطوات التدبر حيث تهتز لها القلوب وتقوم بالربط بين ذلك الجمال المشهود والمبـدع لـه سبحانه فتحصل للإنسان خشية وتعظيما لخالقه حتى تصبح المناظر المألوفة التي لم تكن تحـرك فيه ساكنا، مثيرة للفكر والتأمل ومحركة لإيقاظ البصيرة في ذاته ليصبح الكون كله مسـجدا

[133]- سورة محمد، الآية 23.

[134]- ابن تيمية: الفتاوى، تحقيق: حسنين مخلوف، دار المعرفةن بيروت، 1386هـ، ج15، 410 وما بعدها.

[135]- الجوزية، ابن قيم:الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، بلا تاريخ، ، ج1، ص 67.

ومحرابا يدخله المؤمن فيخشع قلبه وتنقاد جوارحه إيمانا ويقينا وتصديقا. عندئذ تأتي نصوص القرآن الكريم على نفسه موقظة أحاسيسه وقدراته العقلية، مؤثرة في ذاته وحياته مغيرة لسلوكياته نحو الأفضل والأتمّ في أسلوب متناغم مع الكون كله.

وليس الإبصار المقصود تجريدي لمجرد النظر فحسب، بل الغاية منه الوصول بالمؤمن إلى مرحلة القدرة على اكتشاف قوانين الخلق في الكون والأنفس التي يديم النظر إليها، ومن ثمّ استثمارها في إنجازات فعالة تخدم البشرية وتحقق غاية الإعمار والاستخلاف الحضاري.

من هنا كان التأكيد القرآني المتواصل على أهمية النظر في السماوات والأرض والأنفس والأمم والتاريخ...ليصبح العقل دائم التفكر في الخلق، دائم البحث عن قوانينه وسننه مثيرا المحاولات للتعرف عليه والإفادة منه. يقول تعالى: ألَم تر أن الله أنزلَ مِن السماء ماء فَأخرجنا بِهِ ثَمراتٍ مختلِفًا ألْوانها ومِن الْجِبالِ جدد بِيض وحمر مختلِف ألْوانها وغَرابِيب سود.[136]

ابتدأت الآية النقلة الحضارية الهائلة بكلمة "ألم تر" تأكيدا على أن المسألة ليست مجرد نظرة عابرة بل هي رؤية تجتمع فيها القدرة على النظر المتبصر بالعين والتعقل بالقلب والعقل لإدراك المعاني، وتقليب النظر وإعادته للتعرف على الخلق، والخروج بتلك النظرة المتفحصة بإنجازات حضارية في مختلف تخصصات العلوم الطبيعية كعلم النبات والطب والجيولوجيا والاحياء والإجتماعيات...ثم إن الآية الكريمة أثبتت صفة الخشية لهؤلاء العلماء الذين جمعوا إلى جانب تلك التخصصات الخشية والإيمان وكانت علومهم قائدة لهم لمعرفة الله وخشيتهم له.

وتتوالى آيات الأنفس والآفاق في إعجاز مستمر لا يتوقف لحظة عن لفت العقول والأبصار والأسماع إلى العلاقة المتبادلة المستمرة بين آيات الكتاب التي جاء بها الوحي وبين آيات الآفاق والأنفس التي أودعها الخالق سبحانه في الكتاب الكون المشهود وعلى هذا لا تكاد تخلو سورة

[136]- سورة فاطر، الآية 27

من سورة القرآن الكريم إلا وفيها حثّ على النظر والتتبع العلمي لمظاهر الإعجاز والحض على الكشف عنها في الأرض والنفس ومفردات الخلق[137].

من هنا تطور العلم التجريبي عند المسلمين من خلال التـدبر في خلـق السـماوات والأرض والتفكر في سنن الله في خلقه من جهة، والتدبر في كتاب الله من جهة أخرى، محدثا تلك النقلة الحضارية الهائلة عند المسلمين. ولن يتسنى للمسلمين العودة إلى دورهم الحضاري إلا من خلال العودة إلى تدبر الكتاب والكون في تناسق معرفي واضح.

ومن أهم **الخطوات التي يمكن الإفادة منها** في **تطبيق التدبر** في **واقعنا** ما يلي:

- إدراك القارئ بأنه مخاطب القرآن وآياته كما خوطب بها السابقون. الأمر الـذي يجعـل القارئ يلتفت إلى الآيات ويتدبر فيها طالما أنه استشعر أنها موجهة إليه. يقول ابن القـيم في ذلك:" أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له ويظنونه في نوع وفي قوم قـد خلو من قبل ولم يعقبوا وارثا، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمـر الله إن كان أولئك قد خلو فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهـم وتنـاول القـرآن كتناوله لأولئك"[138].

- الاهتمام بالتأني في التلاوة فلا يكن هم القارئ أن ينتهي من السورة أو الجزء بل ليكن همه الأول فهم المعاني وتدبرها. ويمكن الاستعانة بالإعادة والتكرار للآيات في سبيل تحقيق ذلك. وقد كان هذا دأب النبي عليه الصلاة والسلام والصحابة رضوان الله عليهم.

جاء في صحيح مسلم عن حذيفة قال: "صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت يركع عند المائة ثم مضى، فقلت يصلي بها في ركعة، فمضى فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ"[139].

---

[137]- الكيلاني، ماجد عرسان: أهداف التربية الإسلامية، المعهد العلمي للفكر الإسلامي، أمريكا، 1997م، ص 157.

[138]- ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1973م، ج1، ص 343.

[139]- رواه مسلم، صلاة المسافر، حديث رقم 772.

وفي صحيح الترمذي عن أم سلمة _ رضي الله عنها _ قالت:كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقطع قراءته آية آية، الحمدلله رب العالمين ثم يقف، الرحمن الرحيم ثم يقف[140].

وعن أبي وائل قال جاء رجل إلى عبدالله بن مسعود فقال: إني لأقرأ المفصل في ركعة، فقال عبد الله: هذّاً كهذّا الشعر ؟!!! إن أقواما يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم[141]. وأتى أحدهم إلى ابن عباس رضي الله عنهما فقال: " إني سريع القراءة إني أقرأ القرآن في ثلاث، فقال ابن عباس: لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها و أرتلها أحب إلي من أن أقرأ القرآن كما تقرأ"[142].

ويقول ابن القيم رحمه الله حول ذلك:" لو علم الناس ما في قرأة القرآن بالتدبر لا اشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأة بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة، ولو ليلة، فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر و تفهم، و أنفع للقلب، و ادعى إلى حصول الإيمان و ذوق حلاوة القرآن.

وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح و قد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام بآية يرددها حتى الصباح، و هي قوله تعالى:" إن تعذبهم فإنهم عبادك و إن تغفرلهم فإنك أنت العزيز الحكيم"[143].

وأخبار السلف في ذلك أكثر من أن تحصى في هذه العجالة فقد كان الوقوف عند الآيات والتكرار لها حتى يحصل لهم التأثر بها، ديدنا لهم.

- ومن الوسائل المعينة في ذلك الاهتمام باللغة العربية والرجوع إلى المعاجم لمعرفة معاني الكلمات التي تشكل عليه، إضافة إلى ضرورة النظر في كلام العلماء و قراءة ما كتبو في تفسير القرآن الكريم، فلا يأتي التدبر دون فهم المعاني.

---

[140]- رواه الترمذي، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم 5000.

[141]- رواه مسلم.

[142]- ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة، ج1، ص 554.

[143]- المرجع السابق، ج1، ص 553-554.

فالقرآن الكريم نزل بلغة العرب وبلسانهم، وهو لا يفهم إلا بفهم ما به نزل، ولذلك كان تعلم اللغة من أكثر الخطوات أهمية في التدبر. يقول ابن تيمية رحمه الله في فتاويه: " وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن"[144].

وليس المطلوب استغراق المتدبر في كتب النحو والإعراب والبلاغة ونحو ذلك بل يكتفى بالحصول على المستوى الذي يمكنه من فهم وتدبر القرآن. وإلا كان الاستغراق في ذلك حائلا بينه وبين التدبر صارفا له عن الغاية التي لأجلها طرق هذا الباب[145].

- معرفة المعنى الإجمالي للآيات في البداية وذلك من بعض التفاسير المعتمدة المختصرة التي تتناول معاني الكلمات بإجمال دون ضرورة الوقوف علىالتفاصيل والخوض في المطولات والشروح والروايات[146].

فليس من شرط التدبر أن يكون تفصيلياً لكل كلمة وكل حرف، بل قد يكون التدبر بإدارك المعنى الإجمالي، وعقل الكليات المرادة بالآية، ولاشك أن التدبر يكمل كلما كان العلم بالمعاني أكمل، وإن لم يكن شرط المعرفة التفصيلية للمعاني وأوجهها لازم لمطلق التدبر[147].

والرجوع في ذلك إلى كتب التفاسير المعتمدة، والنظر في أقوال أهل العلم فيها، فقد حوت تلك الكتب كثيراً من تفاسير السلف، كتفاسير الصحابة، وتفاسير التابعين وتابعيهم[148].

مع التأكيد على أهمية استبعاد الشروح المطولة والاستطرادات المتنوعة والروايات المختلفة التي تصرف في كثير من الأحيان القارئ عن المعنى والمراد من البحث فيها أصلا بالانشغال في مسألة أخرى لكثرة ما يتفرع منها ويتشعب عنها ويحدث فيها من الاستطراد[149].

- الاهتمام بالقراءة الشمولية لآيات القرآن وقصصه وحواراته دون القراءة التجزيئية التي تنتزع كلمة أو آية معينة من سياقها لإثبات رأي معين أو استخلاص حكم معين. ومن الأمور التي تعين المتدبر في ذلك الرجوع إلى بعض المعاجم لألفاظ القرآن الكريم كالمعجم المفهرس

---

[144]- ابن تيمية، فتاوى ابن تيمية، ج13، 331-332.

[145]- بتصرف عن: صلاح عبدالفتاح الخالدي، مفاتيح للتعامل مع القرآن، مكتبة المنار، الأردن، 1985م، ص 82 وما بعدها.

[146]- هناك العديد من كتب التفاسير المختصرة التي تتناول معاني الكلمات بشكل مجمل يمكن الرجوع إليها ومن أمثلتها:

[147]-ناصر العمر، مرجع سابق.

[148] من أمثلة ذلك: التفسير الميسر الذي أخرجه مجمع الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله، وتفسير الشيخ السعدي الذي أشرنا إليه في ثنايا الكتاب.

[149]- بتصرف عن: الخالدي، مرجع سابق، ص 82 وما بعدها.

لالفاظ القرآن ونحوه الذي يفيد في تتبع اللفظة في القرآن وأحيانا الموضع في القرآم كالمعاجم الموضوعية. فيقوم المتدبر بجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة ومشتقاتها والتعرف على معانيهـا اللغوية واستنباط دلالاتها من خلال استعمال القرآن الكريم لها. وقد يعبر بعض المعاصرين عن هذا اللون بالتفسير الموضوعي[150].

- الاهتمام بالمناسبات والروابط بين الآيات والسور وهو علم دقيق تعرف بـه وجـوه ارتباط أجزاء القرآن بعضها ببعض. وهذا شامل لارتباط الآية مع الآية والحكم مـع الحكـم والسورة مع السورة والقصة مع القصة. وقد اهتم به كثير من المفسرين والعلمـاء. يقـول الزركشي في أهميته:" واعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول ويعرف به قدر القائل فيما يقول"[151]. ويقول في تفسير سورة البقرة:" ومن تأمل لطائف نظم هذهالسورة وفي بـدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسـبب ترتيبه ونظم آياته"[152]. وثمة تفاسير عدة اهتمت بذا النهج إضافة إلى العديد مـن المؤلفـات الحديثة في هذا الباب[153].

يقول الدكتور دراز في كتابه النبأ العظيم:"إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهـل أضغاثاً من المعاني حشيت حشواً وأوزاعا من المباني جمعت عفواً فإذا هي - لو تدبرت - بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول وأقيم على كل اصل منها شـعب وفصول وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول فلا تزال تنتقل بين أجزائهـا كمـا تنتقل بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق بـل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام كل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر خارج المعاني أنفسها وإنما هو حسن السياقة ولطـف التمهيد في مطلع كل غرض ومقطعة وأثنائه يريك المنفصل متصلاً والمختلف مؤتلفاً. ولمـاذا

[150]- مصطفى مسلم، مباحث في التفسير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، 200م، ص 23.
[151]- بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1994م، ج1، ص 35.
[152]- الزركشي، مرجع سابق، ج1، ص 36.
[153]- من أمثلتها ما كتبه أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، دار المعارف، الهند، 1971م. جلال الدين السيوطي، مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع. وغير ذلك كثير.

نقول إن هذه المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحجرات في البنيان؟ لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما كما يلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقها تمتد شبكة من الوشائج تحيط بما عن كثب كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً ويتعاون بجملة على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية"[154].

وفوائد التعرف على هذا العلم جمة في موضوع التدبر فهي توقف المتدبر عند الحكم والمقاصد وتعين على فهم الآيات والربط بينها في الموضوع الواحد. وهناك أنواه متعددة للمناسبات كما في السورة الواحدة وفي مطلعها وخاتمتها وبين السورة وما قبلها وما بعدها وهكذا.

- الاهتمام بمقاصد السور وأهدافها فللقرآن مقاصد وأهداف ولكل سورة مقصد خاص بها. ويمكن التعرف على الأهداف من خلال الفترة الزمنية التي نزلت فيها السورة. فالسور المكية كما هو معلوم لها مقاصدها من تثبيت العقيدة والإيمان بالبعث ونحو ذلك، وكذا المدنية لها مقاصدها في بناء المجتمع والاسرة والدولة...والتعرف على المكي والمدني معلوم من مظانه في كتب علوم القرآن[155] وكتب السيرة ونحوه.

- انشغال القلب والعقل بآيات القرآن والحياة معها وصرف الذهن إلى الأجواء والظروف التي نزلت فيها. ويأتي هذا من كثرة قراءة الآيات واستحضار ظرفية نزولها وقراءة شيء من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام لمعرفة تلك الأجواء والاستغراق فيها شيئا فشيئا

- عمل دورات وورش عمل تطبيقية يشرف عليها متخصصون في تدبر القرآن وتشجيع ذلك، خاصة في مواسم المسابقات الدولية لحفظ القرآن الكريم والتي تقام في أنحاء متعددة من دول العالم الإسلامي. فمن المؤلم أن نشهد اليوم هذا الانصراف عن هذا العلم العظيم وألا نجد من يحتفي بنشره، فالحفظ والتلاوة - كما أسلفنا- وسيلتان لتدبر القرآن وتفهمه ومن ثم العمل به، فلا يشتغل بالوسائل عن الغايات!!.

---

[154]- نقلا عن الشيخ أحمد حسن، في مناسبة الآيات والسور، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد العاشر، 1423هـ/ 2000م.

[155]- من اشهرها: البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، و " الإتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي.

- استحضار أهمية العمل والتطبيق لما يتدبره المسلم وما يتوصل إليه في واقعه وحياته حتى يصبح القرآن واقعا نحياه وسلوكا عمليا نسير على هداه.

وثمة وسائل وخطوات علمية تربوية لازمة للتدبر رأينا المقام لا يتسع للتفصيل فيها وسنقوم بإفرادها في كتاب آخر بإذن الله.

الخاتمة

تناول هذا الكتاب دراسة مبسطة للتدبر في القرآن الكريم ومحاولة لإيضـاح أهميتـه وقيمته العلمية والتعبدية. كما تمت مناقشة أهم الآثار والثمار الإيجابية لإعمال وتفعيل التدبر في الحياة على مختلف المستويات الفردية والجماعية. وانتقل الكتاب في عجالة إلى إيضاح أبرز الآثار السلبية المترتبة على إهمال التدبر، مبينا أن أغلب مظاهر التخلف الحضاري الذي تحيـاه الأمة، إنما مرده إلى ترك هذه الفريضة وعدم الإلتفات إليها. كما قدم الكتـاب اقتراحـات ووسائل لتفعيل التدبر في حياة الأفراد من جديد وإعادته إلى التطبيق والتنفيذ.

د. رقية طه العلواني